الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عـايـض القحطـاني

كَشْكولُ الحُبّ

كتاب في أدب العشـق

صفاء السريرة • لماذا الحب مؤلم • الصداقة والحُب • رائحة الحُب • نظرة عابرة • ومن الحب ما قتل! • قسمة ونصيب • الحُب من وجهة نظر أُخرى! • نهايةٌ حزينةٌ • تم الزواج • حديقة الحب • مجنون ذكي • الحُب طائر • فارسية عفيفة • رائحة الحُب • الحُب وأشياء أُخرى • دعاء للعاشقين • الإعجاب شبيه الحب • حمامتان • فن الاعتذار

عايض القحطاني
كَشْكولُ الحُبّ

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عـــايض القحطـــاني

• كاتب من الكويت

سـأعرض لك في ﴿كشكول الحب﴾ كراسة رائعة، فيها قصص شتى، وأحاديث بعضها لا يزال يُروى، ترى معي نوادر تتحرك لها الطباع، وتهش لها الأسماع، تسر المحزون، أصفى من رائق الشراب، وأبهى من أيام الشباب، طعّمتُها لك بأبياتٍ أعذب من الماء الزلال، وألطف من السحر الحلال، لو قُرئتْ على الحجارة لانفجرت.

خذ هذا العمل مني جليساً لوحدتك، وأنيساً لوحشتك، يسرع لفظه إلى أذنك كما يسرع معناه إلى قلبك، لأننا سنتحدث فيه عن فاكهة الحديث، عن الحب وسرّه العصيّ، هذه الكلمة المنمقة ﴿الحب﴾ التي دار حولها الأولون وسموها بتسميات عديدة لكن المعنى بقي واحدًا وهو الحُب.

وكما أن لسكان الأسكيمو خمسين كلمة لمعنى الثلج لأنه يشكل جزءًا كبيرًا من الحياة بالنسبة لهم، كذلك الحب، له معانٍ كثيرة وأسماء عديدة لمن يعيشه، لكنه يبقى هو ذلك المبهم ﴿الحب﴾ والحب لمن يعيشه!

ستفجر في هذا الكشكول براكين الحب الخامدة في داخل كل إنسان، ستعيش الحب بفطرةٍ سليمةٍ، لا تتكلف فعله، ولا تتقمص فيه أدوار المحبين، لكن نحاول بقدر الاستطاعة إخراجه من داخل النفوس، فهو كامن ككمون الشرر، نحن مَن نريد حبسه لأننا نعاني منه الكثير!

من مقدمة المؤلف

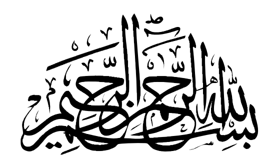


ISBN 978-9953-87-318-3
9 789953 873183

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102
بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

كشكول الحب



كشكول الحب

كتاب في أدب العشق

تأليف

عايض حمد القحطاني



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-318-3



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1 - 961+)

ص.ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 2050 - 1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1 - 961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

هـذا العمـل وردة أقدمها للمحبين إهداء بلا مقابل، كلامًا أنشره لهم عطرًا يستنشقونه، وبلسمًا للقلوب الحزينة.

هـــــذا كـــــتاب متـــــيم يـــشكو الـــصبابة في كـــتابه

لـــو كـــان يـــنطق ذا الكـــتاب شـــكا إلـــيكم عظـــيم مـــا بـــه

أؤمن بالله حتى لو لم أره...

كما أؤمن بالشمس حتى ولو لم تسطع...

وأؤمن بالحب حتى ولو لم يظهر...

عايض القحطاني

المحتويات

* * *

مُقَـدِّمَـة

أعْـرف أن كلمـة "كشكول" كانت مصدر إلفات لناظرك الكريم، وقـد أردتُ بهذه الكلمة الدخيلة على اللغة العربية أن أجذبك إليّ حتى تـتحدث معـي في حديث نتبادل فيه أمتع الكلام وأجوده، وماذا أصنع بمـا عـندي من الحديث إذا لم يكن معي قارئ أطارحه القول، وأساجله الحديث، ونتبادل من الحِكَم سحراً حلالاً.

سـأعرض لـك في "كـشكول الحـب" كراسة رائعة، فيها قصص شـتى، وأحاديـث بعـضها لا يـزال يُـروى، ترى معي نوادر تتحرك لها الطـباع، وتهـش لهـا الأسمـاع، تـسر المحزون، أصفى من رائق الشراب، وأبهـى مـن أيـام الـشباب، طعمتُها لك بأبياتٍ أعذب من الماء الزلال، وألطف من السحر الحلال، لو قُرئتْ على الحجارة لانفجرت.

خـذ هـذا العمل مني جليسا لوحدتك، وأنيسا لوحشتك، يسرع لفظـه إلى أذنـك كمـا يـسرع معناه إلى قلبك، لأننا سنتحدث فيه عن فاكهـة الحديث، عن الحب وسره العصي، هذه الكلمة المنمقة "الحب" الـتي دار حولها الأولون وسموها بتسميات عديدة لكن المعنى بقي واحدًا هو الحُب.

وكمـا أن لـسكان الأسـكيمو خمـسين كلمة لمعنى الثلج لأنه يشكل جـزءاً كـبيرًا مـن الحـياة بالنسبة لهم، كذلك الحب، له معانٍ كثيرة وأسماء عديدة لمن يعيشه، لكنه يبقى هو ذلك المبهم "الحب" والحب لمن يعيشه!

سـنفجر في هـذا الكـشكول بـراكين الحـب الخامـدة في داخل كل إنـسان، سـنعيش الحب بفطرةٍ سليمةٍ، لا نتكلف فعله، ولا نتقمص فيه أدوار المحـبين، لكـن نحـاول بقدر الاستطاعة إخراجه من داخل النفوس، فهو كامن ككمون الشرر، نحن مَن نريد حبسه لأننا نعاني منه الكثير!

لأحد العارفين:

سألني فتى عن الحب قلت له: انتظر

سألني عجوز عن الحب قلت له: تذكر

سألني رجل عن الحب قلت له: حدثني أنت عنه!

الحـب هـو "الحـب". يعـرف ولا يعـرّف. ذلـك الحـب، جميل في متناقـضاته، عـسير إيجـاده، جمـيل تملكـه، مـن السهل أن تفقده، ومن الـصعب أن تنـساه، وقـد يكتب الرجل كتابا عن الحب، ومع ذلك لا يـستطيع أن يعـبر عـنه، ولكـن كلمة واحدة عن الحب من الرجل إلى المـرأة تكفـي لـذلك، وتلميحة بسيطة من المرأة إلى الرجل كفيلة أيضا بذلك!

قالـــوا كتـــبت الكـــتاب مجـــربًا فأجبـــتهم متبـــسما وقلـــت كـــلا

لكـــــن فـــؤادي قـــد تلاشـــــى مـــن حـــديث الحـــب واضـــمحلا

وفي كلامـنا عـن الحـب، سنستبعد كل كلمة خادعة استخدمت الحـب غطـاء للوصـول إلى غرض دنيء وغير مشروع، سنعلن الحرب علـى كـل مـن يـريد احـتلال أرض الحب الخضراء، ليدنسها بوحله، سندعوهم إلى السلم فإن جنحوا للسلم فهلم هلا، وإن أبوا إلا العيش مع الشهوة والهوى، فالحرب بيننا وبينهم سجال.

وإن كـان لابـد مـن الـصلح، فلـنعقد صلحًا بين الهوى والعقل، ولتـسقط بعـد ذلـك كـل روايـة حـب خلـيعة خدعت أحداثًا بعمر الزهور، ولتسقط كل قصيدة تدعو بمحتواها إلى الفجور، وليسقط كل أديب دس لنا السم في العسل.

أنـــا الهـــوى العـــذري فـــني   فـــإذا صـــبوت فـــلا تلمـــني

أنـــا في الهـــوى فـــرد فـــلا   تذكـــر ســـواي ولا تـــثني

فاســـند أحاديـــث الغـــرام   مسلـــسلا إن شـــئت عـــني

وإذا جهلـــــت طـــــريقة   مـــنه فـــسلني وامـــتحني

وإذا نجح فرويد في أن يوجه الناس نحو الجنس بدلاً من الحب، فإن رايـة العفـة لا زالت تخفق، وما فائدة الحب إذا خسر العفة والروحانية والطهـارة ومعـاني التـضحية والـبطولة والحماسة، التي تحثُّ على سمو الأخـلاق، وأيـن معاني الحب إذا انصرف الرجال إلى استثمار معارفهم النفسية للحصول على المتع المادية، وانصرفت النساء عن مُثُلهن العليا إلى توافه الحياة وسفاسفها فنزلن عن عروشهن في القلوب.

وإنـــي قـــسمت الفـــؤاد فنـــصفه   عفـيف ونـصف في حديـد مكـبل

سـيكون هذا الكتاب تنفيسًا لكل متعفف، وملجأ لكل شريف، ومـلاذًا لكـل محـب، والله يجعل للمتعفف مكان اللوعة سلوة، ومكان الحـزن فـرحة، ومـن راقـب تصرفات الناس فإنهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً، وأكثر الناس ـ لو تمعنت ـ لا يعلمون.

قـل للـذين تقدمـوا قبلـي ومـن   بعـدي ومن أضحى لأشجاني يرى

عـني خـذوا وبي اقتدوا وبي اسمعوا وتحدثـوا بـصبابتي بـين الـورى

سـأكتب للجمـيع بعاطفة الأبناء الذين حولتهم الحياة شيئًا فشيئًا إلى آبـاء لآبـائهم، إذا كانـت المـسألة مسألة حب. سأكتب وأنا في الحد الفاصـل بـين الحـب والـلا حـب ليرى الجميع ماذا يفعل فوران تلك العاطفة السامية عندما يكون هناك صقيع من المشاعر.

لـيرى الجمـيع لمـاذا يـأتي هـذا الحدث فجأة ويذهب فجأة، لنرى الـردود، ومـا يـصاحبها من الورود، وكم من كلمات اشتعلت بنيرانها أفئدة، وتمرغت على رمادها أوجه، واحترقت بنيرانها أيد، فهلم لحديث الحب ويا له من حديث.

* * *

مـــدخل

كـان صـغيرًا مراهقًا،لم يكن يعرف أن حديث الحب سيكون نديمه وزمـيل دربـه، في يـوم مـن أيـام المراهقة، بعد أن بدأ يجري في دمه ماء الـشباب، وفي روتين يومي ممل، كما هي حياة كل مراهق بائس يعتقد أن الجميع يكرهه.

ذهب إلى إحدى العيادات الطبية يلتمس الشفاء عند أهل الدواء، وبيـنما هـو ينتظـر، وقعت عيناه على فتاة لامعة تأخذ البصر، وضيئة الـوجه، جميلة الجبين، ثابتة النظر، سريعة الخطى، شامخة الأنف، تمشي بكبرياء غير مصطنع، تبدو مطهرة من كل ذنب.

أحـس وقـتها بانجـذاب رهيب نحوها، اختلجت وهي تنظر إليه، فاخـتلج لاختلاجها، عرف من نظراتها أنها تبادله مثل ما يخفي لها بقدر الحمـاس والامتـنان، ينظـر إليها فتصد عنه، فإذا صد عنها نظرت هي إليه، حتى يلتفت ناحيتها فتعاود الصد.

لم تكـن تلـك الفـتاة عاديـة كمـا الفتـيات، أحس وقتها أنها أتت من كـوكب آخـر، لـولا أنـه رآهـا تقـود أمهـا العجوز معها، بعد تبادل تلك النظرات السريعة، تحاملت نفسها وذهبت الفاتنة مع أمها، أحس وقتها أنه يـريد أن يحملها مع أمها إلى حيث أرادتا، بلا أجر ولا شكر، جلس يحملق بعـين الـنادم الـوجل، ذهبت، كان عليها أن تغادر، مرورًا بجانبه، بشكل لا يمكن لها أن تمر دون أن تراه، وتركته بنظرة هي أجمل تعبير على وجه إنسان.

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم
فأيقنت أن القلب قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

تركته بنظرة مكلومة، مليئة بالحديث، ممزوجة بقليل من الأسى، لا يمكن لبشر أن يراها في ذلك الوقت إلا وذهبت نفسه عليها حسرات.

وأقسم لو أبصرتنا حين نلتقي ونحن سكوت خلتنا نتكلم!

مخلّفةً في نفسه غصة من أسى، نسي وقتها لماذا أتى إلى الطبيب، لم يقتف لها أثرًا بعد ذلك ولا سمع عنها خبرا، منفطر القلب، وبِأَسىً لا يحتمل، يمزق أحشاءه، طوال شهرين كاملين من المواظبة، مشغوفًا لرؤيتها، يذهب في كل أسبوع بنفس الزمان وفي نفس المكان الذي تركته فيه، يؤمل نفسه لعله يظفر بها مرة أخرى لكنها لم تأتِ.

جلست لها كيما تمر لعلني أخالسها التسليم إن لم تسلم

منذ ذلك الحين وخيالها، تلك الملاك، يأتي عليه فجأة ويختفي فجأة.

ودب هواها في عظامي وحبها كما دب في الملسوع سم العقارب

كانت أول جرح حب لمس قلبه، أحس كأنما قفز في فراغ، كانت كأنما الجزء المفقود الذي يبحث عنه، شعر بانفجار زبد مؤلم في أحشائه، وبقيت تلك الفتاة في مخيلته كحب في داخل حب، تلك النظرة العارضة كانت الأساس لشعلة حب متقدة لم تكن لتخبو حتى هذه الساعة!

ولع البداية

من جرب وعاش الحب وسنينه، وعرف كيف يبدأ وكيف ينتهي، وعاش حزنه وفرحه، لا يسعه إلا أن يوافق أن أجمل مرحلة فيه هي بدايته، الداخل في الحب والخارج منه، دائما يتشوق إلى اللحظات الأولى التي رق فيها قلبه أمام شخص جديد في حياته.

الشغف والولع اللذان يملآن قلبك في أول دقائق اللقاء هما وقود العلاقة وذروة انبساطها، حتى لو لم تبدأ بعلاقة جدياً، تستطيع أن تصف أول العلاقة كمرحلة "غزل" تأخذ بقلبك إلى مقامات العشاق المتيمين.

أول الحب في القلوب شرارة تختفي تارة وتظهر تارة

وللعلم، فإن أول العلاقة حتى لو لم تكن موفقة فهي رائعة بحد ذاتها!

في كتابها "كيف تجذب أي شخص في أي وقت في أي مكان" سوزان رابين[1] تقول: "في لحظة معينة في حياة كل شخص، لابد أن نلمح شخصًا يبدو لنا للوهلة الأولى أنه منتهى الكمال وعين الجمال من بني جنسه، وأنه بالطبع الشخص المناسب الذي سيملأ الدنيا علينا، ونحن نعرف أننا لن نتقابل معه أو حتى يصادف أن سنتقابل، لكن بمحض القدر، أو صدفة، نقابل الشخص الذي علقنا حلة الكمال عليه، ومن الوهلة الأولى نتفاجأ بخيبة شديدة، فهو أو هي من

(1) How to Attract Anyone, Anytime, Anyplace. The smart guide to flirting Susan Rabin

النوع الذي لا يستطيع أن يضع ثلاث كلمات في جملة مفيدة، في البداية نشعر بخيبة الأمل لانعدام الصفات التي تخيلناها في ذلك الشخص، لكن روعة اللقاء الأول جعلتنا لا نندم لأن ذلك الشخص لا يستحق أيا من مقدمات العلاقة".

ليس هناك من لم يتعرض في حبه أو في علاقاته لفشل أو خيبة أمل، وبقدر السعادة التي يمنحها الحب يكون هناك عذاب وشوق وقلق وحرمان، ولا بد لمن تذوق سعادة الحب أن يتجرع من غيرته وغرابته وأحزانه، والحب في مراحله مثل قصص الروايات في طلوع أحداثها ونزولها، لها بداية وموضوع ونهاية ومعظمها تجري في نهج متشابه إلى حد ما.

بداية الشاب الوسيم الذي يملأ خيالكِ حواء قد يبدو في غير هذا الجمال الباهر الذي تتخيلينه، فسترين الشَعر يكسو صدره ويملأ ساقيه، وسترين الذي يكاد يذوب رقة وحُنُوًّا ويكاد يملأ الكون بثقافته ليس إلا رجلا فظا غريرا يقف أمام المرآة يشاهد عضلاته المتهدلة بنظرة إعجاب وغرور، سترين لطفه يوما يخص غيرك من النساء وسيتذمر إلى الحد الذي يثير السأم في قلبك!

والبداية غالبا ما تكون سعيدة وجميلة وهانئة، بل يجب القول أن مرحلة بداية الحب هي أجمل وأمتع وأحلى مراحله بلا أدنى شك، وقد صاحبت مَن كان يعيش على بدايات الحب فقط، ولا يتعلق قلبه بأحد، ولا يطمع في خوض علاقة عميقة، ولا يرغب حتى في الولوج في أحاديث مطولة مع مَن يحب، كان دائما قادراً على أن يدرج النهاية في البداية بشكل متقن.

ألمّ بــه الكمــال فــصار ســوراً   كدائـــرة نهايـــتها ابـــتداء

ولـتمكن الـبداية سند وتفسير علمي ذكره الدكتور "ليبوفيتز" في كـتابه[1] الـذي يقـول فـيه أن المخ في بداية وأثناء المرحلة الأولى للحب يفـرز مادة (فينيل إيثيل أمين) وهي المسؤولة عن حالة الرضا والسعادة التي تنتاب المحبين أثناء هذه الفترة.

لكـن لا يـستمر إفراز هذه المادة بنفس المعدلات في المرحلة التالية الـتي يفـرز فيها المخ مادة "الأندروفينات" وهي المطمئنات الطبيعية التي تعطـي الإحـساس بالأمـان والاسـتقرار والارتـياح ثم عـندما تقـل "الأندروفيـنات" في الجـسم تـبدأ المـتاعب ويقـل الإحـساس بالأمـان والاستقرار ويظهر الملل وتتوتر العلاقة وقد يفترق الحبيبان.

* * *

(1) من "أسرار الحب والزواج والجنس" ناصر أبو الحمد 2006.

سبحان الله

في البشر أصناف من خلق ربي، فيهم من حسن صورة وجميل وجه ما يجعلك ترتد إلى نفسك كلما رأيتهم، ولا تملك إلا أن تقول بلا تردد "سبحان الله" كلما حصلت المشاهدة، وفي خلق النساء وقع الجمال أشد وأفتك لما حباهم الله به من مظهر جذب وموقع سحر، فهم رمز الجمال والبهاء.

تقول "سبحان الله" عندما ترى جسدًا يذوب رقة، مستويًا مطواعًا، مفرطًا في الحُسن، كمله الله وجمله عضوًا عضوًا.

نظرت فأقصدت الفؤاد بسهمها   ثم انثنت عنه فكاد يهيم

ويلاي إن نظرت وإن هي أعرضت   وقع السهام ونزعهن أليم

ولا يخلو زمان من جمال، وكل زمان له مسحة جمال تسوده تكون هي الطاغية عليه.

ذكر الجمال الأصمعي في قصة له يقول فيها: كنت قد مررت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون: "قد جاءتْ قد جاءت!!" فتحول الناس فقمت معهم فإذا بجارية قد وردت الماء ما رأيت مثلها قط في حُسن وجهها وتمام خلقها فلما نَظَرَتْ التفات الناس إليها أرسلتْ برقعها وغطت عن وجهها فكأنما غمامة غطت شمسًا.

عباراتنا شتى وحُسنك واحد   وكلٌ إلى ذاك الجمال يشير

ترى النفس تتبع الجمال حيثما كان، مولعة به، مسحورة بحرارته،

وإن ممن رأينا لا نجد له وصفا يليق به إلا وصف العاشق الأول "ما وجدت مثلها مقبلة ولا مدبرة"، تسحر الألباب حتى في التفاقما، إذا التفتت إلى اليمين يلتفت معها العقل والقلب والروح والجوارح، وإذا التفتت شمالاً تأخذ كل ما عندك لتنقله شمالاً، تعجز عن نطق أي كلمة في أوقات مثل تلك الأوقات إلا كلمة "سبحان الله".

فإذا وقفت أمام حسنك صامتًا فالصمت في حَرَمِ الجمال جمالُ

بل إنه قد تعتري الإنسان رغبة في البكاء إذا صادف منظرًا مفرطًا في الجمال، بكاء مصحوب بجملة الانبهار"سبحان الله"، ذلك الجمال الذي يبهرك ويربكك، إنك إذا رأيت صبغة الله في جسد المرأة الفاتنة، للعيون في محاسن وجهها مرتع، وللأرواح بها مستمتع، قمرية التصوير، شمسية التأثير، لها خِلقة سوية صحيحة، ولها صورة صبيحة، مع استواء التقاطيع، وجمال الشعر الإمبراطوري الرائع، وحواجب كأنها خطت بضربة قلم، ومبسم مزهر كأنما وردة تتفتح كلما ابتسمت، وكأنك تشعر بخرير الدم في شرايينها يجري بانسياب كلما اقتربت منها، تنبض بالحياة، لا تملك عندما تشاهد منظرًا كهذا إلا أن تقول بلهفة "سبحان الله" توقف أيها الزمن ما أجملك.

غضي جفون السحر أو فارحمي متيما يخشى نزال الجفون

لله في خلقه شؤون وليس بالإمكان أبدع مما كان، حتى إذا ابتسمت إليك وهي مبادرة بثغر مؤتلق تبسمت كما ألعاب نارية انفجرت للتو، يبدو جمالها أكثر إشعاعا مع تلك الابتسامة.

يا عاذلي إن تكن عن حسن صورته أعمى فإني عما تقول أطرش

تعـرف مـنها غـرور الأنـوثة وتعـرف أنها هي الأنثى الوحيدة التي تـضمر في قرارة نفسك أنك ستعود إليها في نهاية المطاف مهما صنعت بك!

يحـــــبك قلـــــبي ولكـــــنه   يخـــاف دلالـــك إن أعلـــنا
فـلا تجعلـي مـن غـرور الأنـوثة   بابـــا يـــسد الهـــوى بينـــنا

حـتى أنـك تـرى الكهل والرجل المبجل يضعف أمام سحر جمال الـشابة الصغيرة لما لها من جاذبية وقبول مفرط ولحاظ فتاكة لا يستطيع مقاومتها.

يرخـي إذا ذكـروا الغـرام بأذنـه   فتهـيّج الأشـواق مـا قـد أضـمره
مـا كـان يحـسب أن يـدين لطفلـه   تـنهاه في شـرع الغـرام وتأمـره
حـــوريّة حـــار الـــزمان بحـــسنها   فجـــثا وســـبّح للعظـــيم وكبّـــره

إن إدراك الجمـال في حـد ذاته نوع من اللذة كما لذة رؤية خضرة الـربيع، وجـريان المياه العذبة منسابة، ورؤية منظر الثلوج على أسطح البيوت وقمم الجبال، ليس في رؤية هذه المشاهد الخلابة طمع في تملكها أو الاسـتئثار بهـا دون الغـير، أو حتى مجرد التفكير في أكلها أو شربها، لكـنها متعة مؤقتة تجبرك على قول "سبحان الله"، حكي عن فيلسوف أنه رأى امرأة جميلة شنقت نفسها في شجرة فقال: يا ليت كل الأشجار تحمل مثل هذه الثمار؟!!

شذرات قلم

في كـتاب "الكشكول" لبهاء الدين العاملي أنه رأى في كتاب بخط قديم: "أن الحب سر روحاني يهوي من عالم الغيب وإلى القلب، ولذلك سمـي هـوى، من هوى يهوي إذا سقط، وسمي الحب بالحب لوصوله إلى حبة القلب التي هي منبع الحياة، وإذا اتصل بها سرى مع الحياة في جميع أجزاء البدن". ا. هـ.

وواقـع الحال، عندما تحب تشعر بأنك خلقت من جديد، وولدت من جديد، ورزقت من جديد، في عالم جديد، أروع وأجمل.

عـندما تحـب، تتغير نظرتك للأشياء، ويتغير تفكيرك في الأشياء، ويـتغير إحـساسك بالأشـياء، عـندما تحـب، تحلـم بـصوت مسموع، وتبتـسم بصوت مسموع، وتشتاق بصوت مسموع، لا تستطيع وقتها الـتفكير بـصوت غـير مـسموع، عندما تحب تفهم الحياة أكثر، تفهم نفـسك أكثـر، وتـستطيع فهـم الآخـرين أكثـر، عندما تحب تمنح بلا حدود، وتحلم بلا حدود، وتعطي بلا حدود.

عـندما تحـب، تـصبح لـديك هوايات جديدة، وإبداعات جديدة، واهـتمامات جديـدة، عـندما تحـب تغـير عاداتك السيئة وتستبدل بها عادات حسنة، عندما تحب تبدو للآخرين أجمل وأكمل.

عـندما تحـب تخـتار عطرك بدقة، وتنتقي ملابسك بعناية، وتظهر عليك جاذبية خفية.

عـندما نحب تتغير أذواقنا، وتتغير أحلامنا بشكل مفاجئ، عندما

نحب نفرح بلا سبب، ونبكي بلا سبب، ونحزن بلا سبب.

عندما نحب نفكر كثيراً، ونتمنى كثيراً، ونخاف كثيراً، عندما نحب نسترجع صورا، ونستذكر مواقف، ويأخذ الآخر حيزا كبيرا في حياتنا، عندما نحب يصبح للكلمة ثقل وللحظة وزن وللفرحة طعم، عندما نحب نرسم الخطط ونفتعل الصدف ونشكر الظروف.

في الواقع، ليست هناك صعوبة لا يقهرها الحب، ولا مرض لا يشفيه الحب، ولا باب لا يفتحه الحب، ولا جدار لا يخترقه الحب، لأن الحب له على الناس سلطان.

ما عالج الناس مثل الحب من سقم و لا برى مثله عظماً ولا جسدا

ما يلبث الحب أن تبدو شواهده من المحب وإن لم يبده أبدا

في اللقاء الأول دهشة كأنك وجدت شيئًا كنت تبحث عنه، دهشة الانجذاب الساحق نحو هذا الإنسان الذي تتوق كل حواسك لاحتوائه بالعين والأذن واليد والفم والأنف، كلما اقتربت منه تفرح وكلما ابتعدت عنه تيأس فتقرر أن تبقى معه.

تجربة الحب وسماع "أنا أحبك" لأول مرة، وقول"أنا أحبك" لأول مرة، والتفكير باستمرار لأول مرة بمستقبل مشرق مع شخص آخر دخل على حياتك مؤخرًا، بطموح ومثالية، بوجود رغبة محرقة في قضاء معظم الأوقات معا، ابتسامات رقيقة، نظرات متأملة، لحظات مليئة بالسكون، همس كلمات، رسائل ممتلئة بالمشاعر، شعور بامتلاك الدنيا بين يديك، هذه المجموعة من المشاهد واللقطات تجعل من الإنسان كتلة متحركة من مخلوق سعيد لا يضاهيه أحد في سعادته.

في العشق معنى لطيف ليس يعرفه   مــن الــبرية إلا كــل مــن عــشقا

في كـتاب "العـين الـزرقاء" يقول المؤلف أن الحب الرومانسي هو أعظـم شــيء يمر به الإنسان لأنه يأتي عنوة عنا بلا إرادة منا ولا سعة لنا في الاختيار المسبق.

وكـان ذو الرياستين يبعث أحداث أهله إلى شيخ يعلمهم الحكمة فقـال لهـم الـشيخ: هـل فـيكم عاشق؟ قالوا: لا. قال: اعشقوا وإياكم والحرام.

مـدهش هو الحب، فيه الإنسان قبل الحب شيء، وعند الحب كل شيء، وبعد الحب لا شيء.

* * *

صفاء السريرة

إذا لم يسبق لك أن عرفت نقاء الحب، وفهمت براءته، فمعنى ذلك أن أساس كل علاقة عاطفية لم يظهر لك بعد، ففي المحبين مَن صفاء السريرة لا يسمح له بسرد تفاصيل الوُّد لأحد مهما كلف الأمر، يفعل ذلك تضليلاً للوشاة، وبعداً عن مواطن الشك والشبهة. وكتمان تباريح الصبابة أمان واستراحة من العواذل.

وقائلةٌ ما بال جسمك لا يُرى سقيمًا وأجسام المحبين تسقم

فقلت لها قلبي بحبك لم يبح لجسمي فجسمي بالهوى ليس يعلم

ومن طريف القول أن جميل بثينة لما اشتد به الأمر ووصل مرحلة من الهذيان ظن أنه يخفي اسم محبوبته فقال:

لا لا أبوح بحب بثينة إنها أخذت على مواثقًا وعهودا!

في الكتب إنك إذا أردت الرحيل فاعرف أنك يومًا ستعود، وإذا أردت البوح فلا تفعل دائمًا، لأن البوح ارتكاب جرم ولو كنت على حق.

حكي عن الأصمعي أنه قال: دخلت البصرة أريد بادية بني سعد وكان على البصرة يومئذ خالد بن عبد الله القسري، فدخلت عليه يوماً فوجدت قوماً متعلقين بشاب ذي جمال وكمال وأدب ظاهر، بوجه زاهر، حسن الصورة، طيب الرائحة، جميل البزة، عليه سكينة ووقار.

فقدمــوه إلى خالــد فــسألهم عــن قــصته، فقالوا: هذا لص أصبناه البارحة في منازلنا، فنظر إليه فأعجبه حسن هيئته ونظافته، فقال: خلوا عنه، ثم أدناه منه وسأله عن قصته.

فقــال: إن القول ما قالوه والأمر على ما ذكروه، فقال له: ما حملك علــى ذلــك وأنــت في هيئة جميلة وصورة حسنة؟ قال: حملني الشره في الدنيا، وبذا قضى الله سبحانه وتعالى، فقال له خالد: ثكلتك أمك، أما كــان لــك في جمــال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر لك عن الــسرقة، قــال: دع عــنك هذا أيها الأمير، وأنفذ ما أمرك الله تعالى به، فذلك بما كسبت يداي، وما الله بظلام للعبيد.

فــسكت خالد ساعة يفكر في أمر الفتى ثم أدناه منه وقال له: إن اعتــرافك علــى رؤوس الأشــهاد قد رابني وأنا ما أظنك سارقاً، وإن لــك قــصة غــير الــسرقة فأخــبرني بهــا، فقال: أيها الأمير، لا يقع في نفــسك ســوى ما اعترفت به عندك، وليس لي قصة أشرحها لك إلا أني دخلــت دار هــؤلاء فــسرقت مــنها مــالاً فأدركــوني وأخذوه مني وحملــوني إلــيك، فأمــر خالد بحبسه وأمر منادياً ينادي في البصرة: ألا مــن أحــب أن ينظــر إلى عقــوبة فلان اللص وقطع يده فليحضر من الغــد، فلمــا اســتقر الفتى في الحبس ووضع في رجليه الحديد تنفس الصعداء ثم أنشد يقول:

هددنــي خالــد بقطــع يــدي　　إن لم أبــح عــنده بقــصتها

فقلــت: هــيهات أن أبــوح بمــا　　تــضمن القلــب مــن محبــتها

قطــع يــدي بالــذي اعترفــت بــه　　أهــون للقلــب مــن فــضيحتها

فـسمعه الموكلـون به في الحبس فأتوا خالداً وأخبروه بذلك، فلما جـن اللـيل أمـر بإحـضاره عنده فلما حضر استنطقه فرآه أديباً عاقلاً لبيـباً ظـريفاً فأعجـب بـه فأمـر له بطعام فأكلا وتحادثا ساعة ثم قال له خالد: قد علمت أن لك قصة غير السرقة، فإذا كان غداً وحضر الناس والقـضاة وسـألتك عن السرقة فأنكرها واذكر فيها شبهاتٍ تدرأ عنك القطع، ثم أمر به إلى السجن.

فلمـا أصبح الناس لم يبق بالبصرة رجل ولا امرأة إلا حضر ليرى عقـوبة ذلـك الفتى، وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم، ثم دعـا بالقـضاة وأمر بإحضار الفتى، فأقبل يحجل في قيوده، ولم يبق أحد مـن النـساء إلا بكى عليه وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب، فأمر بتسكيت الناس.

ثم قـال لـه خالـد: إن هـؤلاء القـوم يـزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم فما تقول؟

قال: صدقوا أيها الأمير، دخلت دارهم وسرقت مالهم.

قال خالد: لعلك سرقت دون النصاب.

قال: بل سرقت نصاباً كاملاً.

قال خالد: فلعلك سرقته من غير حرز مثله؟

قال: بل من حرز مثله.

قال خالد: فلعلك شريك القوم في شيء منه؟

قال: بل هو جميعه لهم لا حق لي فيه.

فغضب خالد وقام إليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط.

وقال متمثلاً بهذا البيت:

يـــريد المـــرء أن يعطـــى مـــناه ويأبـــــــى الله إلا مـــــــا أرادا

ثم دعـا خالـد بـالجلاد ليقطع يده، فحضر وأخرج السكين، ومد يـده ووضـع علـيها الـسكين فـبرزت فتاة من صف النساء عليها آثار وسـخ، فصرخت ورمت بنفسها عليه، ثم أسفرت عن وجهٍ كأنه البدر وارتفع للناس ضجة عظيمة كادت أن تقع بسببها فتنة، ثم نادت بأعلى صوتها، إليك هذه الرقعة، ففضها خالد فإذا هي مكتوب فيها:

خالـــد هـــذا مـــستهام متـــيم رمـته لحاظـي مـن قـسي الحمالـق

فأصـماه سـهم اللحـظ مـني فقلبه حلـيف الجـوى مـن دائه غير فائق

أقـــر بمـــا لم يقترفـــه لأنـــه رأى ذاك خـــيراً مـــن هتـــيكة عاشـــق

فلمـا قرأ الأبيات خالد أطرق، وتنحى وانعزل عن الناس وأحضر المـرأة، ثم سـألها عـن القـصة فأخـبرته أن هذا الفتى عاشق لها وهي له كذلك، وأنه أراد زيارتها ليعلمها بمكانه ورغبته، فتسلل الى الدار ورمى بحجـر، لكـن أباهـا وإخـوتها سمعوا صوت الحجر، فانتبهوا إليه، فلما أحـس بهـم جمـع قماش البيت كله وجعله صرة، فأخذوه وقالوا: هذا سـارق وأتـوا بـه إلـيك فاعتـرف بالـسرقة وأصـر علـى ذلك حتى لا يفضحني، وهان عليه قطع يده لكي يستر علي ولا يفضحني، كل ذلك لغزارة مروءته وكرم نفسه.

فقـال خالـد: إنه خليق بذلك، ثم استدعى الفتى إليه وقبل ما بين عينـيه وأمـر بإحـضار والـد الفتاة وقال له: يا شيخ إنا كنا عزمنا على إنفاذ الحكم في هذا الفتى بالقطع، وإن الله عصمه من ذلك، وقد أمرت

لـه بعـشرة آلاف درهـم لـبذله يـده وحفظـه لعرضك وعرض ابنتك وصـيانته لكمـا من العار، وقد أمرت لابنتك بعشرة آلاف درهم، وأنا أسـألك أن تـأذن لي في تـزويجها منه، فقال الشيخ: قد أذنت أيها الأمير بذلك. ا. هـ.

قد يعتقد البعض أنه لم يعد يوجد أحد يملك صفات ذلك الشاب في وقتـنا هـذا وأن الـسرائر أصـبحت مريـضة والجمـيع يضمر الشر والفـضيحة متى ما سنحت الفرصة، لكنني رأيت وتحدثت إلى من كان يكـشف لي تفاصـيل قـصته ولا يـصرح باسمٍ أبدا، ويذرف الدمع بين يـدي شـاكيًا وباكـيًا، ولا أعـرف عمن يتحدث، وإن الفضول ليدفعني أحـيانًا إلى أسـئلة تكشف لي عن شخوص القصة فلا أجد إلا نظرات استغراب تعيد لي وعيي بعد اندماجي مع الشكوى.

بأبـــي حبيـــبا زارنـــي متنكـــرا فـبدا الوشـاة لـه فـولى معرضـا

فكـــــأنني وكأنـــــه وكـــــأنهم أمـل ونـيل حـال بيـنهما القـضا

ولقـد نثـر لي أحـدهم مـرةً أوراقـه وكـشف لي عن حب يذوب له الحديـد لم يـباركه والـداهما فـتفارقا بمعروف إرضاءً لوالديهما ونزولا عند رغبـتهما وكلٌ قلبه حبيس بين أضلاعٍ كلها جوى وحرقة، آثر العاشقان بر الوالدين، وقدما التضحية بحبهما ابتعادًا عن عقوق الوالدين.

وإذا صـفا لـك مـن زمانـك واحد فهـو المـراد وأيـن ذاك الـواحد

وأعرف مَن إن مكارم الأخلاق جعلته يرضى بإهانة مقيتة ممن كان يظـنه حبيـبًا، كانت تلك الإهانة تستحق الانتقام، لكنه فضل الكتمان وأبى أن يهتك أمرًا قد ستره الله، ليعيش الآخر بسلام.

كــم تحــت أذيــال الظـلام متـيم   دامــي الفــؤاد ولــيله لا يعلــم

مــا أنــت في دنــياك أول عاشــق   رامـــيه لا يحــــنو ولا يترحـــــم

وجلـست مـع عجـوز يـوما، سـردت لي قـصة حب نقية كانت تعيـشها، تعـود إلى خمـسين سـنة، لم تـنسَ تلك العجوز أي شيء من تفاصـيل القصة، بل إنها كانت تذكر لي تفاصيل الزمان والمكان، لكنها كانـت تـرفض أن تشير إلى الطرف الآخر من القصة، كانت تذوب في غـرامه، هـذا مـا شـعرت بـه من حديثها، والجميل في الأمر أنها كانت تـؤكد لي أنـه لم يكـن بينها وبينه حب، وإنما "صحبة نقاء"، كنت دائمًا أقـول لهـا إن ذلـك حب، لكنها تصر على مصطلحها الجميل، كانت "صحبة نقاء".

صــحب الــناس قبلــنا ذا الــزمانا   وعــناهم مــن شــأنه مــا عــنانا

قـبل أن تفارق الحياة، رحمة الله عليها ورضوانه، كنت كلما رأيتها في مناسبة أقول لها ممازحا "صحبة نقاء!".

* * *

استشفاء بالدموع

الدمــوع أنــواع، فالدموع العظيمة هي دموع الانتصار، والدموع الــبريئة هي دموع الأطفال، والدموع المؤثرة هي دموع التوبة، والدموع الــرقيقة هي دموع المرأة، والدموع الجميلة هي دموع الوفاء، والدموع الحــزينة هــي دمــوع العــزاء، والدمــوع الــسعيدة هــي دموع النجاح، والدمــوع القاســية هــي دمــوع الألم، والدموع المعبرة هي دموع الندم، والدمــوع المخادعــة هــي دمــوع التماسيح، والدموع المحرقة هي دموع العاشقين، وأروع الدمع دمع عين بكت من خشية الله.

والعــشاق لهــم ضروب، فمنهم من غلبه الحب، وقهرته الصبابة، فــباح بمكــنون ســره، ومكــتوم حــبه، وأذاع كــل ما عنده من حديث، ومنهم من تخوف الرقباء، وهيب العذال، فأخذ ينتحل الأسباب، يدافع كيد الواشين، ويقطع حبل الحاسدين، لكن هذا وذاك لابد لهما من يوم يفــزعان فــيه إلى الدمــوع يطفئ كل منهما بها حرقة في باطن الحشا مع ليل طويل!

لا تعـــذل المـــشتاق في أشـــواقه حتــى يكــون حــشاك في أحــشائه

إن القتـــيل مـــبللا بدمـــوعه مـــثل القتـــيل مـــضرجا بدمائـــه

بل إن للبكاء نفسه ألوانا حتى رد أحدهم على لائمته:

قالـــــت عهـــــدتك تبكـــــي دمًـــــا لطـــــول التنائـــــي

فلِـــــمَ تعوضـــــت عـــــنا بعـــــد الـــــدماء بمـــــاء

فقلـــــت مـــــا ذاك مـــــني　　　لـــــــسلوة وعـــــــزاء

لكـــــن دموعـــــي شـــــابت　　　لطـــــول عمـــــر بكائـــــي

الـذي يبكـي مـن ألم الحـب لا شـك يمر بلحظة ضعف قصوى، وخاصـة إذا كـان يبكـي لنفسه، إن الذي يبكي لنفسه ضعيف والذي يبكـي لغـيره لـيس بـضعيف، الـضعفاء لا يمكـنهم أبـدًا الدخول إلى ملكـوت الحـب فهـي مملكة قاسية وشحيحة، أما التي تبكي فلا بأس لحـواء بالـبكاء فهـو فخـر لها ورِقّة، وإن من حديث الحب ما إنّ سماعه يـوجب المدامـع سـواء كـنت ضـعيفا أم لا، وأروع من عبر عن ذلك الشبلي عندما وصف شجو حمامة أثارت شجوه:

رب ورقـاء[1] هـتوف في الـضحى　　　ذات شـجو صـدحت في فـنن[1]

ذكـــرت إلفـــا وعيـــشًا ســـالفا　　　فـبكت حـزنًا فهاجـت حَزَنـي

فبكائـــــي ربمـــــا أرقهـــــا　　　وبكاهـــــا ربمـــــا أرقـــــني

ولقـــد تـــشكو فمـــا أفهمهـــا　　　ولقـــد أشـــكو فمـــا تفهمـــني

غـــير أنـــي بالجـــوى أعـــرفها　　　وهـــــي بالجـــــوى تعـــــرفني

أتـــــراها بالـــــبكا مـــــولعة　　　أم ســـقاها الـــبين مـــا جـــرعني

وأحترم من يستطيع كتم بكائه في السر، لا يعرض نفسه للقاصي والداني إذا عانى من ألم الحب.

أراك عـصي الدمـع شيمتك الصبر　　　أمـا للهـوى نهـي علـيك ولا أمـر

---

(1) الفنن هو الغصن.

(2) حمامة.

لكن بعض الشعراء أخرج أبياتاً بمثابة الدموع على شكل أحرف، تحولت إلى زفرات مكبوتة، ثم تفجرت، وإنك لتضرب الأرض برجلك من لذة الاستماع لأبيات مثل:

كتمت فقالوا: شاعر ينكر الهوى　　وهل غير صدري بالغرام خبير
ولو شئت أذهلت النجوم عن　　وعطلت أفلاكا بهن تدور
وأشعلت جلد الليل مني بزفرة　　غرامية منها الشرار يطير
ولكنني أخفيت ما بي وإنما　　لكل غرام عاذل وعذير

جاء في أخبار من خلوا أنهم كانوا يقولون: "لا بد للمصدور أن ينفث" يعنون بذلك أن يخرج ما بداخله، ولابد من إعذار للبكّاء، لأن أكثر العشاق يشكون إلى أناس هم ربما لم يذوقوا طعم الحب، أو ممن لا يؤمن بوجوده أصلاً في وقت كهذا، فلا يجدون إلا تعنيفاً.

لو كنت ساعة بيننا ما بينَنا　　وشهدت حين نكرر التوديعا
أيقنت أن من الدموع محدثا　　وعلمت أن من الحديث دموعا

بل إن الشريف الرضي كان يتعذر للبكائين ويقول:

يقولون ما أبقيت للعين عبرة　　فقلت جوى لو تعلمون أليم
أيسمع جفني بالدموع وأغتدي　　ضنينا بها؟ إني إذًا للئيم

والشاب الظريف يقول:

جمعت كتب الغرام أدْرُسُها　　وعبرتي لا أطيق أحبسُها

وفيمن عرفت شاب في مقتبل العمر، له طيبة قلب، على وجهه

أثر نعمة واضحة، طريرًا وسيمًا، كان سعيدًا مجدًا في دروسه، لا يعرف للهـوى وحديثه طريقًا، منشغلاً في طلب العلم في كلية علمية تتطلب مجهـودًا ووقـتًا عظـيمًا في إحـدى الجامعات، وفي يوم من الأيام، رأيت تغـيرًا واضـحًا على ذلك الوجه الذي لطالما كان نضرا بهياً، عرفت فيه الحـب حـشو أثوابه، كان ذلك يبدو لي أكثر من جلي، قلت له ممازحًا "إن لي قلباً يحس بالحب قبل وقوعه!"

كـان لكلامـي عليه وقعٌ أخرج منه زفرة تأكدت بعدها أنه وقع في شـراك حـب دفـين، اسـتنطقته فاسترسـل، وكـان عفيفًا شريفًا أبى أن يطلعني على تفاصيل تجعلني أعرف من التي يتحدث عنها!؟

يقـول: لولا الدموع لتقرحت كبدي ليلة البارحة من جرح أظنك قد عرفته.

قلت له مشاركاً لحزنه:

لا تخـف مـا فعلـت بـك الأشـواق واشـــرح هـــواك فكلـــنا عـــشاق

تنفس الصعداء، ثم تحدث.

يقـول: كانت ستصبح زوجة لي إلا قليلاً، مخلوق ملائكي سرقت قلـبي بـلا جهـد، احتـسبت النظرة الأولى على أنها قدرٌ عارضٌ لكنها تخـرج علـيّ في وقـت أكـاد أكـون فـيه ذائبًا في صورتها قبل أن أراها، تعددت الصدف، وكم من مرة تواقفنا ولا حديث.

ولمـــا تواقفـــنا ذهلـــت: ولم يحـــن لطـــير قلـــوب العاشـــقين وقـــوع

قلـت لـه: إن العربي كان يجد نفسه عاشقًا ولا يعرف كيف حدث ذلك! نظر إلي برهة متبسمًا ثم استطرد.

يقـول: مرت الأيام، واستطعت بمقدرتي المتواضعة أن أعرف اسمها ومَـن هـي، أحسـست أني وجدتها، هي من أبحث عنها، ستكون تلك الفـتاة الـزوجة التي طالما حلمت بها، والغريب في الأمر أني وأنا أتصفح إحـدى الـصحف اليومـية، وقلـبي مـشغول بها، أفاجأ بصورتها أمامي بحـيوية مخـضوضرة في صفحة المحليات، شعور جميل غريب لم أجربه في حـياتي مـن قـبل، أفكر في شخص ثم أجده أمامي كما كنت أتخيله، لم أحـتمل الموقـف فهـرعت إلى زميلة لي أثق بها في اليوم التالي لتمهد لي الطريق لخطبتها.

طلـبت مـني أسبوعا لذلك فتخيلت أنها قالت: أمهلني سنة، قلت لهـا بصوت مرتفع: سنة كاملة!؟ قالت: أسبوع فقط يا غليظ الطبع، لم أعِ أني قلـت سنة حتى عدت إلى رشدي فانتظرت أسبوعًا كاملاً، كنت أعـد الأسـبوع من اللحظة التي طلبْتُ فيها المساعدة، كانت الأيام تبدو طـويلة وكأنهـا لا تنتهـي، كـنت أعد الأيام بحذر، أخوض في جدال مع نفـسي هـل أحسب اليوم الذي تم فيه الطلب مع بقية أيام الأسبوع أم لا؟ وهل تحسب أيام العطل مع الأسبوع؟ وهل الأيام تحسب بلياليها؟

أعــد الليالــي لــيلة بعــد لــيلة وقـد عـشت دهـرا لا أعـد اللياليا

انـتهت المهلـة ورأيت زميلتي ـ وهي زوجة صديق عزيز ـ مقبلةً تحمل معها الخبر اليقين، كنت أتخيلها بدأت بالرد قبل أن نقف وقوف المـتحدثين، شعرت فجأة أن صوتي انفصل عن جسدي، ما الخبر؟ هيا أخبريني؟

بـدأت بلطـف شديد، وتأثر بالغ، بمقدمة عرفت فيها نغمة مأتمية، كما يحدث في تأبين رجل عظيم، عرفت الخبر بحدسي أنه النفي، كانت

شـظايا كلماتهـا تمـزق أحلامـي المـتقدة، استمعت لها تطوعًا لأظهر لها تقديري لجهودها في استشعار الخبر، كنت قد بدأت في نحيب داخلي لم أظهـره لها تخوفًا من قبح الأحدوثة، لم أكن أعرف أنه يمكن للكلمات أن تنزل كالصاعقة على شخص بهذه الطريقة.

لقـد خُطـبت الفـتاة وسـتزف إلى زوجها في القريب العاجل، في تلـك اللـيلة أخـرجتُ مـا في أحـشائي دموعًا محرقة لا أظنني سأشفى بعـدها إن لم تكـن قد خرجت في ذلك الحين، لكن تلك الدموع كانت أخـف حـرقة مـن دمـوع جـاءت بعدها! وكلانا يرمق الآخر بصمت قلت: أنت تمزح؟

قال: استيقظت مبكرًا كما يفيق محكومًا بالإعدام فجر يوم التنفيذ في الـيوم الـتالي وذهـبت إلى الكلـية أخـبط خـبط عشواء لأستريح في مقاعـد كانـت جموع الطلبة تجلس عليها لتتبادل أطراف الحديث، وإذا بي أسمـع حديـثا يُقطِّـع مـا تبقى من أجزاءٍ في قلبي لم تصل إليها حرقة الدموع الأولى.

بطـريقة مفاجـئة وطارئـة كوخـز مؤلم لندبة قديمة كان الحديث أن فلانـة ـ وهي الفتاة نفسها ـ ستزف إلى فلان في يوم الخميس، شعرت وقـتها أن القـدر يختـبر أحيانًا على مرحلتين، خطوت مثقلاً حزيناً إلى مكـان لا يـراني فـيه أحـد منفردًا بنفسي لأخرج آخر رمق قد تبقى فيّ لأستـشفي بدموع أخرى خرجت هذه المرة سيلاً فوطبيعيا، ظننت أني لا أعيش بعدها لأن بعض نبضات قلبي كانت تتأخر.

ومـن ذاق طعـم الحـب مثلـي فإنه عليـم بـأن الحـب مـر مطاعمـه

وإن انفـراد المـرء في كـل مـشهد لخير من استصحاب من لا يلائمه

وأنـا أستمع إليه، أتأمله، باندهاش صوفي، وبزفرة أحر من الأولى، لم يكـن عـندي رد يتناسـب مـع حديثه، ذرفتُ له سيلاً من الدموع في الحـشا أظـنه لو رآها لسلا، كان سيلها داخليًا وكنت مضطرًا للجمها ولم يَـرَ مـنها إلا نظـرةً مواسـيةً اسـتطعت فـيها أن أخـبره عن كنه ما بأحشائي من تفهم لحالته.

وليس الذي يجري من العين ماؤها   ولكـــنها روح تـــذوب فتقطـــرُ

كان بريئا في كلماته كبراءة قطة يغالبها النعاس في أحضاني، وحتى أتحاشـى فترة الصمت التي صاحبت انتهاءه من القصة، بشهيق وزفير، يخـرج معهمـا مـا يعتصر بداخلنا من ألم، استطعت أن أنتقل بالحديث معه إلى حديث آخر لا علاقة له بكلام الحب.

يقـول اليابانـيون إن الـبكاء ضرورة لكنه ليس حلاً، ونحن نقول: ثلاثـة لا يعـاب الـبكاء فـيها: مـوت قـريب، وذلة من بعد عز، وقصة حب!

فـيا لـيت هـذا الحـب يعـشق مـرة   فـيعلم مـا يلقـى المحـب مـن الهجر

* * *

لماذا الحب مؤلم

العاشق دائما يميل إلى التمسك بألمه وشقائه لكونهما من جوهر عشقه وتجربته الوجدانية. حتى إن الخبير في أمور الحب كان يقول بهذا الصدد: "والحب أعزك الله داء عياء، ومقام مستلذ، وعلة مشتهاة، لا يود سليمها البرء، ولا يتمنى عليلها الإفاقة[1]"

وأستلذ بلائي فيك يا أملي ولست عنك مدى الأيام أنصرف

في كتاب "في الحب والحب العذري[2]" إن العقاد أخطأ حين حاول تفسير شكوى العشاق من العشق بقوله: "لا يشكون العشق لأنهم يطلبون الفكاك منه، وإنما يشكونه لأنهم يطلبون الفكاك من ألمه إن استطاعوه" يشرح الكاتب أنه كان يحاول أن يبين أن العشاق العذريين لا يطلبون الفكاك من ألم العشق على الإطلاق، وإنما يعشقون الألم نفسه ويبغونه لذاته كجزء جوهري من تجربتهم.

بل إنه لا غرابة إذاً أن يتصور العاشق أن قلبه هو أشقى القلوب، وتتضح هذه الحقيقة في الأدب الغربي الرومانسي وليس التراث العربي فحسب.

كما في قول الشاعر الألماني نوفاليس وهو جالس على قبر خطيبته:

---

(1) بن حزم في "طوق الحمامة في الألفة والألاف".

(2) "في الحب والحب العذري" د. صادق جلال العظم.

"بـدا لي إذ كـنت جالـسا على القبر أن موتي يمد الإنسانية بمثال الـوفاء الأزلي ويثـبت أنـه بإمكـان الإنـسان أن يحـب كما أحببت... اللـهم أنعـم علـى بالقدرة على الاحتفاظ بهذا الألم الغالي علي أشد الغلاء "

واجتـناب الألم دلالـة علـى أن الإنـسان لا يـريد أن يحب، إذ على العاشـق أن يظـل دوما وأبدًا مستشعرًا للفراغ الذي يحيط به وأن تبقى جراحه نازفة[1].

ولعل هذا الذي حمل الشاعر على قول:

دع عـنك لومـي فـإن اللـوم إغراء   وداونـي بـالتي كانـت هـي الـداء

والـشكوى عـند الإحـساس بـألم الحب يجعل منها ـ الشكوى ـ حاجة ماسة كما البعير يهدر في شقشقته.

والناس لهم مضارب في البث والتنفيس قد يصل إلى حد الغرابة، ففـي الـصين يوجد مقهى "للحزن" افتتح في شرق الصين يتيح لرواده التعـبير عـن حـزنهم بالـبكاء! وتـبلغ تكلفة ارتياد المقهى خمسين يوان (سـتة دولارات) لكـل ساعة مع تقديم أفضل المشروبات للزبائن الذين يذهبون للبكاء حزنا وألمًا.

وتذكـر صحيفة (تشاينا ديلي) في طبعتها الصادرة في هونج كونج إن المقهـى يوفـر أيـضًا لزبائنه المناديل وزيت النعناع لتخفيف آلامهم كمـا يقـدم البـصل والفلفـل الأحمـر لمـساعدة الذين يرغبون في ذرف الدموع.

---

(1) Love in the Western World p.225

وتعـزف الموسـيقى الحـزينة داخـل المقهـى الذي يوفر لأصحاب العلاقـات العاطفـية المحطمـة دمـى على شكل نساء ورجال ليدفعوها جانـبًا أو يـضربوها للتنفـيس عن غضبهم، تقول الصحيفة إن المقهى حقق نجاحًا كبيرًا ويجتذب أعدادا كبيرة من الرواد المكتئبين يوميا!

يذكرنـي الألّـاف سـجع هديلـها   وذكـر قـديم الحـب للقلـب مـؤلم
فأبكـيهم دمعـا إذا فـاض مـاؤه   تحـدر عـن جفـني وأكثـره دم

الحـب مـؤلم لأنه يتغير باستمرار، الحب تحول، وكل تحول سيكون مـؤلم لأنـك سـتترك القديم نحو جديد لم تألفه، وهذا منبع الألم، فالقديم مألـوف ومأمـون، لكـن الجديـد مجهـول وغريب، محيطه مجهول قد لا تتمكن من استعمال عقلك هذه المرة بصورة سليمة، لأنك تواجه شيئاً جديـداً لم تكـن مـستعدًا لـه غالـبًا، تحدياً جديداً، فحسك مؤتلف مع القـديم ويـستطيع فقط أن يتعامل معه، أما أن يكون الطارئ "حبًّا" فلا بد من ألم.

لكن هذا الألم ذو طابع مختلف، ألم ظريف مستحب ومستلذ، كما ألم الطفـل سـاعة الولادة وهو يخرج من رحم أمه يبكي خارجا إلى هذا العـالم، كما ألم العصفور وهو يخرج من بيضته، كما ألم الطائر يحاول أن يفرد جناحيه ويطير لأول مرة.

عذابـي فـيك عـذب   وبعـدي عـنك قـرب
حـسبي مـن الحـب أنـي   لمـا تحـب أحـب

ألمٌ مصدره تخوف من الآخر، لا تعرف، قد يجرحك، لا تعرف، قد يرفـضك، ألمٌ لأنـك خاطـرت بإلقـاء كـل مـا تملـك من أسلحة لتترك

مـصيرك بـين يديـه، قد يتركك وحدك تعيش في الحب وللحب وعلى الحب.

الحـب يـؤلم لأنـه يعـني نهايـة الأنا، ودخول الآخر في محيطك الذي رسمـته لنفـسك، يـؤلم لأن حـياتك لم تعـد مقدسة بالنسبة إليك عندما تـتمنى أن تـتألم لكـي يطمئن الآخر، مؤلم لأنه يعني اتحادًا والتزامًا، مؤلم لأنـك تعطـي بلا مقابل، مؤلم لأنك قد تنتظر من لا يأتي، وتحب من لا يشعر بك، وتحتاج إلى من لا يحتاج إليك.

* * *

انتحار ثلاثي

في هـونج كـونج ثـلاث نساء لقين حتفهن معا في انتحار بالاتفاق بعـد أن تركن وراءهن رسالة قصيرة تقول إنهن "ليس لديهن ما يحببنه" في حياتهن!

النساء الثلاث وأعمارهن إحدى وثلاثون، وثمانية وثلاثون، وتسعة وثلاثـون عامًـا تجمعن في غرفة معيشة بشقة سكنية استأجرتها أكبرهن سـنا وقـد التقين في مستشفى للأمراض النفسية حيث كانت إحداهن تتعافى من محاولة سابقة للانتحار.

النـساء الـثلاث اللائي عثر على جثثهن في منطقة تين شي واي، في هونـغ كونـغ انتحـرن على طريقة الفحم النباتي عندما حرقن فحمًا نباتـيًا تنبعث منه أدخنة محملة بغاز أول أكسيد الكربون السام، وحرق الفحـم النباتي في مكان مغلق هو الآن ثاني أكثر الطرق شيوعًا للانتحار في هونج كونج بعد القفز من المباني المرتفعة!

أورثهــن الحــب جــوى داخــلاً أستنــــصر الله علـــى الحـــب

قطعـا إن الـذين ينضب عندهم تذوق الحياة ينضبون عاطفيًا، ويا لـشقاوة المنتحـر، لـو أنه فقط عرف كيف يتذوق الحياة لبقي على قيد الحياة، نعم، الحياة تبقى معاناة، لكن البقاء هو أن تجد معنى في المعاناة.

الحـياة يجـب أن لا تـتوقف، لا يوجد من مات من شدة الحب، أو مات من قلة الحب.

دع الأيـــام تفعـــل مـــا تـــشاء وطـب نفـسا إذا حكـم القـضاء

ولا تجـــزع لحادثـــة الليالـــي فمـــا لحـــوادث الدنـــيا بقـــاء

من الناس من يعيش داخل غرفة واحدة لا يسمع إلا ساعة الحائط الـتي ألفها ولم يعد حتى يسمعها لأنه ألفها، فيا عاشقا، إن كنت مؤمنًا، فالعمر يهون إلا ساعة، وتهون الأرض إلا موضعًا.

قـــد يهـــون العمـــر إلا ســـاعة وتهـــون الأرض إلا موضـــعا

* * *

دعاء للعاشقين

حكـى الأصـمعي أنـه رأى رجلاً يدعى أبا السائب من بني مخزوم متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم ارحم العاشقين، واعطف على قلـوب المعشوقين بالرأفة والرحمة، يا أرحم الراحمين. قال الأصمعي: يا أبا السائب أفي هذا المقام تقول هذا المقال؟

قال: إليك عني! الدعاء لهم أفضل من حجة بعمرة، ثم أنشأ يقول:

يـا هجـرُ كـف عـن الهـوى، ودع الهـوى للعاشـقين يطـيب يـا هجر
مـاذا تـريد مـن الـذين جفـونهم قرحـى وحـشو صـدورهم جمـر
وسـوابق العـبرات فـوق خدودهم هطـلا تلـوح كأنهـا القطـر
صـرعى علـى جـسر الهـوى لـشقا ئهـم بنفوسـهم يـتلاعب الدهـر

* * *

لحظة غرور

للكبرياء في الحب أهمية كبيرة في نفس العاشق، وربما كلفه الغرور والكبرياء التضحية بحب حقيقي وازدراء كل ما هو ثانوي مكمل لقصة حب سعيدة قد حرم نفسه منها؛ لكن أيضًا هناك من يعتقد أن غرور العاشق والتفافه حول نفسه قد يكون سرًا في بقاء العلاقة!

كيف ذلك؟ أحد الكتاب الفرنسيين القدماء ممن تكلم عن الحب ذكر أن السبب الذي يجعل العشاق لا يكلون ولا يملون من بقائهم مع بعضهم البعض لفترة طويلة حتى مع فتور العلاقة، هو أن الطرفين لا يتوقفان عن الحديث عن نفسيهما طوال الوقت، فالطرفان يريدان أن يكونا مصدر شعاع الحب الذي يحيط بالعلاقة.

الشاب دائمًا يحجم عن التعبير التلقائي عن مشاعره حتى لا تظن الفتاة أنه يهيم بها لأنه يعتبر ذلك ضعفًا وخورًا لا يجب الوقوع فيه، كما أن الغرور في الحب وإحساس الشاب أنه هو المطلوب وأنه هو اليد العليا يجعله يرفض أن يرى نفسه يستعطف فتاة خوفًا من صدها له أو رفضها لطلبه، هو يرى في ذلك كسرًا لكبريائه ومسًّا برجولته وكرامته.

سلام عليها ما أحبت سلامنا فإن أبت فالسلام على أخرى

إذا فهم ذلك، لجأ الكثير من العشاق إلى التمادي في التكبر والغرور في مشاهد عاطفية قد تتمنى أنت ـ لو تسنى لك ذلك ـ أن تصلح من شأنها.

أشـهر مـا ذكـر في هـذا الـسياق تـصوير مولـيير في مـسرحيته "الدونجـوان" كـيف أن الدونجـوان كـان يتبجح في مقدرته على مغازلة فـتاتين حاضـرتين أمامـه، ليس هذا فحسب، بل إنه يملك القدرة على إقناع كل منهما على حدة بأنه سيتزوجها هي دون الأخرى!

في المشهد تقول شارلوت لماتورين "هو يعشقني أنا" فتقول ماتورين "لكـنه سـيتزوجني أنا" وخادم الدونجوان ينظر إلى الفتاتين المخدوعتين مستغربا يرثي حاليهما[1].

وهـنا تـأتي مـرونة ونباهة الدونجوان في احتواء الموقف بكل شموخ وغرور في الرد السريع وطراوة الكلام: "ماتورين... دعيها تظن ما تشاء" ثم يلتفت مباشرة بعد ذلك إلى شارلوت "دعيها تمني النفس بما تريد" ثم يعـود إلى ماتـورين "الله وحـده يعلـم كـم أحـبك" فيلتفت سريعًا إلى شـارلوت "كلي لك روحا وجسدًا" وإلى ماتورين "جميع الوجوه قبيحة بجانب محياك" ثم مرة أخرى نحو شارلوت "حين يراك الإنسان لا يتحمل منظر غيرك من النساء!!"

يقـول الدكـتور صـادق العظم[2]: "فإن شريعة الامتداد بمؤسساتها وقيمها المحافظة، تهاب الدونجوان وترفضه بدورها وتعتبره فاسقًا منحلاً يجـري وراء ما تمجه الأخلاق، وتحرمه الأديان، وتتنبأ له بأوخم العواقب إن كان في هذه الدنيا أو في الحياة الأخرى". ا. هـ.

كـذلك لم يكن خادم الدونجوان راضٍ عنه فقد كان يقول: "أقول لـك مـن بـاب الـتحوط... إن سيدي دونجوان هو أكبر فاسق عرفته

(1) الفصل الثاني مشهد: 4.

(2) "في الحب والحب العذري" ص 42.

الأرض... إنــه مــسعور وكلــب وشــيطان وزنديــق لا يــؤمن بالنعيم ولا بالجحــيم ولا بالــشيطان... يعــيش هــذه الحــياة وكأنــه كلــب حقيقي".

وحــتى لا نعــتقد أن شخــصية الدونجــوان مقــصورة على الرجال فقط، فإن حواء تستطيع فعل ذلك وتتعداه أيضًا:

فقلــت:كمــا شاءت وشاء لها الهوى   قتــيلك قالــت: أيهــم فهــم كثــر!

الجاحظ يرى أن حواء تفوق آدم في إغوائها ومغازلاتها[1]:

"وأكثر أمرها قلة المناصحة، واستعمال الغدر والحيلة في استنطاف مــا يحويه المربوط والانتقال عنه، وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون الاجتماع، ويتغايرون عند الالتقاء، فتبكي لــواحد بعــين، وتــضحك للآخر بالأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطي واحــدا ســرها والآخر علانيتها، وتوهمه أنها له دون الآخر، ولكن الذي يظهــر خــلاف ضــميرها، وتكتب لهم عند الانصراف كتبا على نسخة واحــدة، تذكــر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم".

أيضًا لا يخفى على العاشق أن هناك شعور يدخل على الأشخاص عمــومًا، مــن غــير تخــصيص جــنس معين، يكون سببا في ارتداء حلة الغــرور، يعــود هذا السبب إلى الحاجة، والشهوة، والنزوع، والميل، إلى امــتلاك محــبوب بــصورة مــن الــصور، والاجتماع به بغية إشباع لنهم نفــسي، ولتحقــيق شعور يشبه تكميل نقص كان يضايقنا لعدم تمكن

(1) "في القيان" الجاحظ.

جـذب شــخص إلى دائـرتنا، ذلك الشعور على الغالب يتعلق بشعور الملكية في النفس البشرية لامتلاك الأفضل.

في "طـوق الحمامة" أن محمد بن عامر، وقد كان أديباً نبيلاً، حسن الـوجه والصورة، يضرب به المثل في حسنه وجماله، وتقف الألفاظ عند وصـفه، كـان شـعور الملكـية الـذي نـتحدث عـنه يجعله يرى الجارية فيحـبها، ولا يـصبر عـنها، ويـأتي علـيه الهـم والغـم إلى أن يشتريها، ويتملكها!

وبعـد أن تـصبح ملكـاً لـه، تـتحول المحـبة نفوراً، ويصبح الأنس شـروداً، فيتخلص منها، حتى إنه أتلف بذلك مالاً عظيماً، هذا الرجل مـات مـن محبته عددا من الجواري، بعد أن تسلل الملل إلى علاقته بهن، حـتى إن لـه جاريـة تسمى عفراء كانت لا تتستر عن محبتها له وتبكي عليه الدموع رغم هجره لها!

للجـاحظ نظـرية في هـذا وهي أن العاشق إذا ظفر بالمعشوق مرة واحـدة نقـص تـسعة أعـشار عشقه؟! ولا نعرف من أين استدل على ذلـك، لكـنه يوافـق مـا يجـري لكـل عاشـق، فالملاحظ أن من ملذات العشق أن صورة المعشوق لا تبدو واضحة في البداية.

بـل إن مـن عـشاق العـرب الأوائل من كان يلهج باسم من يحب حـتى إذا لـبت لـه محبوبته طلبه يأمرها بالابتعاد عنه لأنه مشغول بتلبية نداء الحب إذ ليس لديه وقت يخصصه لها وهذا غريب!

حـال العاشـق عجـاب، فالأمـل عـنده أهم من التحقق، وترقب الشيء أهم من حدوثه، والذكرى عنده أهم من الحدث!

يقول عمر بن أبي ربيعة في لحظة غرور:

بينما ينعتنني أبصرنني دون قيد الميل يمشي بي الأغر
قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر؟

حتى وصل به الغرور أن يتحدث أيضًا باسم من قد نكث بعهدها:

خبروها بأنني قد تزوجت فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختها ولأخرى جزعًا ليته تزوج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسر سترا
ما لقلبي كأنه ليس مني وعظامي أخال فيهن فترا
من حديث نمى إليّ فظيع خلت في القلب من تلظيه جمرا

ومن أكثر الشعراء ترسمًا لخطى عمر بن أبي ربيعة في الغرور هو ربيعة الرقي وهو شاعر كفيف يظهر تأثره بعمر بن أبي ربيعة جليًا واضحًا في مجال إنطاق المرأة في التغزل بشخصه، يقول:

قالت من أنت؟ قلن التابعات لها هذا ربيعة هذا فتنة الأمم!

غرور صارخ حتى وهو كفيف لكنها الغريزة إذا استدعيت، وحثت، أتت بالعجائب.

في أساطير اليونان أن فتاة تدعى (صدى) أحبت فتي يدعى (نرجس) قد تعلق قلبها به حتى الوله، لدرجة أنها لا تستطيع أن تتخلى عنه، ولكن بسبب هذا الحب لحق بها الضرر الجسمي والنفسي، وأخذت حالها تسقم شيئا فشيئا حتى ماتت.

ولكن الآلهة لم تترك نرجس دون عقاب، بل حكمت عليه أن يرى صـورته في المـاء ويعشقها عشقًا كبيرًا، وأخذ يجلس أمام صورته أوقاتا طويلة يتغزل في نفسه، وهو يشعر بالسرور والفخر من جماله ووسامته، ولكـن مـع مـرور الوقت فقد عقله بسبب عشقه لصورته، وفي إحدى المـرات تاه في نفسه كثيرًا بسبب تمكن العشق من قلبه مما جعله يقذف بنفسه في الماء ليمسك بصورته فغرق ومات!

يقول العطوي في الهوى متبجحاً:

جـريت مـع العشاق في حلبة الهوى ففقـتهم سـعيا وعـدت على رسلي

فمـا لـبس العـشاق ثوبا من الهوى ولا خلعـوا إلا الثـياب الـتي أبلـي

ولا شـربوا كأسـا مـن الحب حلوة ولا مـــرة إلا وشـــربهم فـــضلي

* * *

تنفيس في التسمية

في تـاريخ كل إنسان بالإضافة إلى اسمه، أسماء أشخاص اعتاد عليها وألِفهـا مسمعه، وكما أن في اللغة العربية هناك ـ الأسماء الخمسة ـ لها إعـراب خـاص، فإن في حياة كل عاشق أيضًا أسماء ليس بالضرورة أن تكـون خمـسة، لكـنّ لهـا وقعًا خاصًّا على نفسه، أسماء عندما تمر على المحب يرتبك ويتذكر وأحيانًا يتناسى!

والعاشـق مفضوح إذا حاول التكتم على أسراره بطريقة مكشوفة للجميع.

يقول المجنون مرتبكًا:

دعـا باسـم ليلـى غيرهـا فكأنمـا أطـار بليلـى طائـرا كان في صدري

ثم مختلجًا:

كـأن فـؤادي في مخالـب طائـر إذا ذكـرت ليلـى يـشد بهـا قبـضا

وهناك من يتناسى الأسماء لحاجة في نفسه، يقول شوقي:

أتـراها تناسـت اسمـي لمـا كثـرت في غـرامها الأسمـاء؟

وبعـض الأسمـاء تمتعـنا بمجـرد سماعهـا مـرة أخرى لأنها تحمل لنا رسائل ذكرى جميلة عشناها فترة من الزمن ثم انقضت:

أحـب مـن الأسمـاء مـا وافـق اسمها أو اشـبهه أو كـان مـنه مدانـيا

في حـديث أم لـولدها، تحـدثني أمـي عـن سـر تسمية فلان لبناته

الـثلاث بفلانة وفلانة وفلانة؟ لا أعرف كيف بدأ بنا الحديث، لكن سر التـسمية جلـب لـنا كلامًـا لا يـنقل بـين الناس إلاّ بحذر، اعتدلت في جلـستها لأهمـية الحـديث وأخـذت على عاتقها أن تخبرني بسر اختيار الأسمـاء الـثلاثة لكـنها أخـذت مـني مـوثقًا غلـيظًا ألا أتفـوه لأحد بما سـتحدثني بـه، وبنـبرة حـذرة، قالت: إن "أبا البنات" كان يحب "فلانة" وحـاول أن يخطـبها لكـن أهلها رفضوه فلم يستطع أن ينساها فسمى ابنته الأولى باسمها.

أمـا سر تسمية الثانية والثالثة فهناك "نميمة نساء" بأهن نساء مررن في حياته وأحبهن حبًا شديدًا ولم يخبر أحدًا بحديثهن!

التـسمية من الأشياء التي لا يملك فيها الإنسان القرار لنفسه ليجد نفسه مع اسم يلتصق به يشعر بدفئه ويلتحف به سواء أحبه أم لم يحبه، وهـا هو "كليب" وائل بن ربيعة الذي كان يقال عنه "أعز العرب" يبين وجهـة نظره في التسمية في نقاش مع الجليلة زوجته بعد أن قرر اختيار اسـم "جرو" لولده، شرعت الجليلة في شكوى الأسماء القبيحة فقال لها كلمـته المـشهورة: "نحـن أنـاس نـشرف أسماءنـا ولا نتشرف بالأسماء"، فسارت مثلاً في الاعتزاز بالنفس لا بالاسم.

وممـا رأيـت صـغيرًا مـن كان يكتب اسم من يحب في راحة يده ثم يقبلها مرارًا وتكراراً في معيتي لكي أرى ما هو فيه!

كتـبت اسمهـا في راحـتي ولثمـته　　أقـبله طـورًا وطـورًا أعاتـبه

حبـنا لـشخص مـا يجعلـنا نحب اسمه بشكل مختلف حتى بعد أن ينتهـي الحـب، مجـرد تذكـر الاسـم يعيد لك رعشة كهربية تسري في جـسدك وتـزيد من خفقان قلبك ليظل اسمه راكزًا في القلب، له صدى

مميـز لا يـشبهه شـيء آخـر، يهيج له ألف تذكار، له وقع خاص على الأذن يجعلك تفكر في العودة بعد أن وصلت إلى مرحلة من اللاعودة.

تذكـرت شـيئا قـد مـضى لـسبيله   ومـن عـادة المحـزون أن يتذكـرا

ومن عرفت فتاة كان اسمها مطابقًا تمامًا لاسم أمها، وبعد السؤال، تبين أن أمها فارقت الحياة وهي تلدها. مُعانِيًا من الأسى، أراد أبوها أن يحيا على ذكرى زوجته وحبيبته بتسمية المولودة الجديدة باسمها.

ومـا كـنت أدري قـبل عزة ما البكا   ولا مـوجعات الحـزن حتـى تـولت

ماجـد شـاب قـوي الحـضور ورب لأسرة سعيدة اختار اسمًا مميزًا لابنـته الصغيرة لم يكن دارجًا في محيط عائلته، كان اسمها "آلاء" بتلقائية وبـين ثـنايا الحـديث، سألته عن سبب اختيار اسم "آلاء" بالذات، كان يقـول ماجـد إن والـده أصر إصرارًا شديدًا على أن يكون الاسم"آلاء" ولا أعرف لماذا!

كان ماجد دائما في شك أن ذلك الاسم له وقع عاطفي على والده في القدم، لكنه لم يجد أثرًا لذلك، كان يحرص على سؤال المقربين لوالده عـن الاسـم لكـنه لم يجـد جـواباً شـافيًا، حتى وجد ما كان يبحث عنه عـندما وشـت لـه عجـوز من أقاربه أنه كان يحب في شبابه شابة تحمل ذلك الاسم!

أحبـبت مـن أجلـه من كان يشبهه   وكـل شـيء مـن المعـشوق معشوق

وممـن عـرفت شـاب يـدرس في إحـدى الكلـيات، كانت إحدى الطالـبات مـن زمـيلاته تعـشقه حـتى الـنخاع وهو لا يدري عنها ولا يلـتفت إلـيها، وفي موقـف تنفـيس لم يـسعها ـ تلـك الفـتاة ـ ذلك

الكتمان والحرمان حتى أطلقت اسم من كانت تحب على أول مولود لها بعد زواجها تنفيسًا وحسرة!

قـد تخـوفت أن أمـوت مـن الـشو ق ولم يـدر مـن هـويت بمـا بـي

يـا كتابـي اقـرإ الـسلام على مـن لا أسمـي وقـل لـه يـا عذابـي

وأعـرف مـن كان كلما تحدث واشتد به الحديث مع فتاة في نقاش أخطـأ في نقاشـه لينادي باسم من شغلته عن غيرها حتى يفطن أنه دعا باسم من لا تحادثه!

أريـد لأدعـو غيرهـا فيجرنـي لـساني إلـيها باسمهـا كالمغالـب

* * *

الحصان الأبيض!

في حـديث لـسيدة لم تَـرَ الحـب الـذي طالما حلمت به، تقول: إن حكايـة فـتى الأحـلام علـى الحـصان الأبيض غير صحيحة وإن نسبة الطـلاق مـرعبة ولكـن المـسؤولية تقـع بشكل كبير على فلان وفلانة وسمت نجمين من نجوم الأفلام التي كانت تشاهدها في شبابها.

تقـول: لقـد كـبرنا ونحـن نـشاهد أفلامهمـا وبنينا أحلامنا ونحن نشاهد البطل يجري في اتجاه البطلة لا عكسه، يعترف لها بحبه، ثم يعتذر لهـا من ظلمه، ويضمها منقذاً إياها من القطار المسرع، ثم يلفها بردائه، ونرى كلمة النهاية تغطي ظهر الحبيبين وهما يسيران على سكة الحديد يملؤهما الحب!

الـسيدة الموجوعة بواقعها، تلوم الجميع وتقول ممتعضة: لم يقل لنا أحد ماذا يحدث بعد النهاية عندما يصطدم البطلان بالواقع وتبدأ البطلة "بالنـساة"[1] ويـبدأ الـبطل بتـسديد القـروض، ولم يقل لنا أحدٌ ما إذا كانـت كلمـة الـنهاية تعـني نهاية الفيلم أم نهاية الحب، وتضيف السيدة أيـضًا بحـرقة: سـامح الله أمهاتنا اللائي سمحن لنا بمشاهدة أفلام كتلك لأنها شكلت لنا توقعات غير منطقية وغير واقعية!

(1) كلمـة خليجـية تعني الوحام. وحمت المرأة توحم وحمًا إذا اشتهت شيئا على حبلها (حملها).

الصداقة و الحُب

إذا كـان الحب طائرًا فالصداقة هي ذلك الطائر مجردًا من أجنحته، وهـناك حاجـز بسيط ـ ويبدو شفافًا أحيانًا عند البعض ـ بين مفهوم الـصداقة ومفهـوم الحـب، الـسبب ربما يعود إلى درجة الإخلاص التي تـبلغ ذروتها عند البعض فتفهم على أنها حب عشقي محض، وفي ذلك نظر.

في الـصداقة شـيء رائـع هـو الذي يجعلها تجاري الحب في مكانته عند الناس، ذلك الشيء الحسن هو أن صديق اليوم يبقى صديق الغد، فالـصداقة المخلـصة لا تنتهـي حـتى ينتهي عمر الإنسان، فهناك عراك وهناك أشياء تدخل في النفوس لكنها دائمًا تخبو وتزول هذه المنغصات بالاعـتذار الجميل، وهناك الهجر الذي لا يدوم حتى تأتي العودة والعود أحمد.

ببـساطة، هـناك خـط للـرجوع في الصداقة على الدوام لكن هذا الخط لا يوجد في الحب أبدا!!

الحـب إذا انتهى فإنه لا يعود، قيل: الحب إذا انهدم لا ينفع الندم، والـصداقة يمكن أن تتحول إلى حب لكن الحب لا يمكن أن يتحول إلى صـداقة، الحبـيب نـريده وحـده لنا ولا يشاركنا أحد فيه، أما الصديق فالصديق للجميع وهذا هو الفرق الواضح بين الاثنين.

يلـــــومني الـــــناس في صـــــديق والـــــناس لا يعـــــرفون دائـــــي

أنـــت بلائـــي وأنـــت دائـــي   وأنـــت تـــدري فمـــا دوائـــي

والحـب نـوع مـن أنواع الحسيات التي تكون مستقرة لكنها تزيد وتـنقص، بمعـنى أن الحـب يـزيد ويـنقص متى ما ثبت ونبت، كحب الـزوج لزوجته والزوجة لزوجها، لكن الصداقة إذا قلت ونقصت فإنها في طريقها إلى الأفول بمعنى أنها لا تعود إذا لم يتعاهدها الأصدقاء.

الـصداقة تتكون في محيط الشخص ودائرته، فدائمًا نجد أنفسنا مع أصـدقاء هـم في الأصل يشاركوننا نفس الهوايات التي نحبها نحن، أو أن مجال عملهم هو نفس مجال العمل الذي نشتغل به، وجودنا فترة طويلة مـن الـزمن مع أشخاص معينين تحت سقف واحد وتحت رئيس عمل واحـد، قـد يطـور علاقة الزمالة ـ إذا أردنا أن نسميها في هذه المرحلة بهـذا الاسـم ـ لتـصبح علاقـة صـداقة، وهذه الصداقة هي التي تجعل بعض الناس يفرق بين زميل العمل وصديق العمل!

فـإذا كـان الشخص يحب زميل العمل حب الصداقة الذي نفرق بينه وبين الحب العشقي المحض هنا، تجده لا يكنيه بزميل العمل ولكن يحـرص على تسميته بصديقي فلان وليس زميلي فلان، أما إذا كان لا يطـيقه لكـنه مجـبر علـى العمـل معه في المكان نفسه، ف"زميل عمل" كلمـة عادلة تستخدم لإدخال الجميع في دائرة وئام تكون سببًا للتفاهم العام.

الفـرق بـين الـصداقة والحـب لـه أيـضًا علاقـة شديدة بطبيعة المجـتمع، فالمجـتمع الذي يسود فيه الاختلاط بين الجنسين بشكل غير موجه يكون فيه الحاجز الذي يفصل بين الصداقة والحب رفيعًا جدًا ولا يمكن تمييزه أحيانًا!

كـثيرٌ منا يعتقد أن الآخر يتخبط في غرامه بأوهام نزلت عليه بوحي مـن نفسه، لكنها صداقة عابرة أو حتى زمالة لا أكثر ولا أقل، عدم وجود حـدود معينة في مجال العمل، وعلى مقاعد الدراسة، وفي دورات التطوير المهني والإداري، كل ذلك يجعل من العلاقات بين الجنسين معقدة جدًا.

هـذا التعقيد غير صحي ويخلق للأشخاص دوامة محيرة حتى أن كثيرًا مـن الأزواج ممـن يتعـرض لمـثل هـذا الـنوع مـن الاختلاط، يجد نفسه في عمليات مقارنة بين شريك حياته وأناس آخرين، وفي ذلك أيضًا يقع كثيرون في أخطاء فادحة قد تكلفهم احترام الدائرة الاجتماعية التي تحيط بهم، هذا إذا لم تزعزع استقرار زيجات مستقرة تضررت من جراء تلك الأخطاء.

معظم تعاملاتنا مع الآخرين وتعاطينا لعاطفة الحب تنبع من ثقافة اكتـسبناها وتـربينا عليها وجربناها، بطريقة مضمرة، هناك استجابات مؤثـرة للـتلقين الـذي يأتي من أدبيات التلفزيون والمسلسلات والأفلام التي تشاهد على الدوام.

حـتمًا، نحـن كمجـتمع محـافظ يراعي الدين والأخلاق السمحة، لـسنا "مسلـسل الأصـدقاء FRIENDS"[(1)] حـتى تتـشابك علاقاتنا في محيطـنا الذي نعيش فيه ليختلط الحابل بالنابل وتصبح معاملة الصديق كمعاملة الزوج أو الزوجة إذا فهم القصد!

تحـاول مـني شـيمة غـير شـيمتي وتطلـب عـندي مذهـبا غير مذهبي

---

(1) مسلـسل شـهير ذو طابـع كومـيدي مـن إنتاج قناة (NBC) الأمريكية. لاقى انتـشارا ورواجـا واسـعا علـى مـستوى العـالم بعشرة مواسم متتالية، صوّر الكثير مما يعانيه المجتمع الذي يترك الحبل على الغارب للشباب في التوسع في علاقات الصداقة بشكل فوضوي.

هناك ذوبان شديد بين الشباب والشابات في العديد من المجتمعات، لا يراعي ذلك الذوبان إلاّ ولا ذمة لكل حد من حدود العلاقة بين آدم وحواء، تمامًا كما فعل فرويد[1] وفسّر الحياة والنشاط البشري كلّه وردّه إلى الدافع الجنسي، فاعتبر السلوك الإنساني والحضارة البشرية بما فيها من إبداع ومآس وارتفاع وهبوط ما ذلك إلاّ مظهر من مظاهر التعبير عن دوافع الغريزة الجنسية عند الإنسان.

ولم يكتف بذلك بل نظّر أيضًا لدراسة وتحليل الأمراض النفسية والعصبية وردّها إلى الكبت الجنسي، ثم نادى بالإباحية الجنسية للتخلّص من الكبت والحالات المرضية كما في أرائه وتفسيراته، عفوا لمحبي فرويد، لكن الشيخ المريض لم يخرج لنا الكثير المفيد، ولنعد تقييم ما جاء به بكل حيادية وموضوعية.

لم يكن أيضًا فرويد وحده هو الذي دعا إلى التخلص من "أغلال" وقيود الدين والأخلاق، بل أيضًا من كتابنا و- مبدعينا - ممن ظهر في فترة من الزمن ليست ببعيدة حرصوا على إقناعنا بأن التقدم العلمي والصناعي لا يكون إلا بكسر قيود الأخلاق والحلال والحرام[2]!

---

(1) يُعتبر فرويد مؤسس مدرسة علم النفس التحليلي (Psychoanalysis) وهذه الطريقة تقوم على الكشف عن أسباب المرض النفسي في لاشعور (Unconscious) المريض. ويتم ذلك عن طريق دفع الرغبات والمشاعر المكبوتة والذكريات المَنْسِيَّة من اللاشعور إلى الشعور.

(2) يقول طه حسين في أحد مؤلفاته "إن سبيل النهضة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهو أن نسير سيرة الاوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب"!!

هـا نحـن هنا، معلمينا الكرام، لا نرى إلا هبوطا مع أن الكثير قد عمل بما بشرتم به، فلا صعود ولا ارتقاء.

ضـوابط سـلوك الـصداقة بـين آدم وحـواء هـي ضوابط لسلوك الإنـسان في هـذه الحـياة، مـا جاءت إلا هدى ورحمة وموعظة، وجاءت معالجـة لأعمال الإنسان وتعيينا لكيفية سلوكه، جاءت حتى لا نسمع: "أحب زوجتي، وكذلك صديقتي في العمل، وتلك الفتاة!!"

جاءت حتى لا نرى أن "الصديق" قد يصبح بديلاً مؤقتا للزوج، له ما للزوج وعليه ما عليه، بكامل حقوقه الشرعية!

كـــان صـــديق زوجهـــا فـــزاره فأبـــصرته فاشـــتهت جـــواره

بـالفم الممتلـئ، لا يوجد هناك صداقة بين آدم وحواء خارج إطار عمـل حقيقـي مشترك، هذا النوع من الصداقة ليس سيلاً أفقيًا لكنه هاويـة بـلا قرار، متى ما تطورت الصداقة بين الاثنين، فلن يوجد هناك أي عائـق مـن اتخاذ خطوة أكثر جرأة إذا ما أقدم عليها أحد الطرفين، وسـيظهر هناك حب محظور ما كان ليحدث لو أن كلًّا منهما ميز ذلك الفاصل الدقيق بين الصداقة والحب.

يقـول أوسـكار وايلـد عن صداقة الرجل للمرأة: إنها نكتة طريفة تشبه صداقة القط للفأر!

* * *

الحبُ وأشياء أخرى

تقـول: لقد كان يحبني، وقد قالها لي متيمًا وضعيفًا، ليتكم رأيتموه وهـو يـنطقها بخـضوع وضعف، نعم أنا أتكلم عنه هو، ذلك الشاب الـذي تنظرون إليه الآن يتبتل، يفتخر أمام الجميع بقوته وسطوته لكني أسلمته فريسة في شباكي؟

قلـنا لهـا: دعينا نسأله ثم ننظر ماذا يقول، والحكم في القضاء بعد المداولة!؟

قالـت: يقـول مـا يقـول، لـست خائفة، فعندي أدلة دامغة تثبت أقوالي!

قلنا لها هاتي ما عندك هاتي!

قالـت: كان يقول لي أني أجمل امرأة رآها في حياته، وكان يتغزل في جمالي، وفي دلالي، كان بالفعل مولعا بي!

حـتى أنـه قال لي مرة: أنت ملاكي، وقد خصني بها، ولا أظنه قالها لأحدٍ من قبلي ولا بعدي!

قلنا لها... ثم ماذا؟

قالـت: بكـيت عـنده مرة وقلت له إني أحبك ثم تأثر تأثرًا شديدًا وقال لي أنه يبادلني الشعور لكنه لا يستطيع البكاء؟!

قلنا لها: بكيت؟!

قالت وقد ألهب الخجل وجهها: نعم بكيت!

ـ لماذا تسألونني هكذا؟ هل هذا استفهام ضدي أم معي؟

قلنا لها: مجرد استفهام بريء!!

قالت: لم أفرغ بعد، كان يكتب فيَّ شعرا وكنت مصدر إلهام له.

قلنا لها: هل عندك دليل على ذلك؟

قالت مفتخرة ومحرجة: نعم، لكنها قصاصات أحتفظ بها لنفسي ولن أسمح لكم برؤيتها.

قلنا لها: هل ما يزال يكتب لكِ؟

قالت: لا!

قلنا لها: لماذا، ماذا حصل؟

قالت مطأطئة الرأس مستعبرة: اسألوه، أنا لا أريد رؤيته، أنا أكرهه ـ ثم انفجرت باكية ـ وغادرت!!!

قلنا لها بصوت واحد: سنسأله لك.

ذهبنا إليه في صومعته... وجدناه يتأمل ويتفكر...تارة يكتب... وتارة يقرأ... لا يحبذ التكلم مع من لا يعرفه... لم نجد وسيلة للفت نظره إلا بذكرها... وصرخنا باسمها ناحيته فالتفت إلينا مستغربا مرتبكا... كأنما تصنّع لا مبالاة متعمدة ستارا لإخفاء عذاب حب قديم!!!

قلنا له: قالت عنك كذا وكذا... فهل عندك رد!

قال: لا رد عندي... ارجعوا إليها غير خائبين ولا مطرودين.

قلنا له: قالت إنك سحرت بهواها واكتويت بجواها!!

بتأثر شديد وبلطف بالغ قال: وقالت ذلك؟

قلنا له: نعم وأكثر!

قال:

ولم أر من لا يعرف الحب غيرها ولم أر مثلي حشو أثوابه الحب

قلنا له: تقول أنها فاتنتك وقد أرغمتك على الخضوع لها!

قال:

نعم أنت فاتنة إنما أرى عزة النفس لي أفتنا

وإن كان عندك سحر الأنوثة فسحر الرجولة عندي أنا

قلنا له: أي العاشقين أنت، غريب هو أمرك؟

قال مغادرًا:

عشقت وما بي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب

حاصل الكلام، كانا عاشقان سريان عليهما من الستر لفافة، فما زالا يحبان بعضهما بصدق، ويرفضان بعضهما بصدق.

* * *

الإعجاب شبيه الحب

لعل أشد المشاعر المشابهة للحب هو الإعجاب، وفي بعض الأحيان يتطور الإعجاب ليصبح حب، لكنه يبقى التوأم الوسيم له، تستطيع أن تسمي الإعجاب حبًّا نوعيًّا أو حبًّا سببيًّا، الإعجاب يأتي لوجود سمة أو خلة في شخص ما تحبه لأجلها.

قد تكون هذه السمة الوسامة، قد تكون الثروة، قد تكون الرقيّ في الحديث، قد تكون الذكاء الحاد، قد تكون التميز في مجال ما، كل تلك السمات تعتبر أسبابًا أدت إلى الإعجاب، ولأن الإعجاب شيء سببي، فبزوال السبب سيزول الإعجاب.

لذلك إذا أردت أن ترى إن كان إعجابك بشخص معين هو مدخل لحب عميق فلتسدل الستار عن سبب ميلك الرئيسي إلى شخصه، ولتنظر هل حب ذلك الشخص متمكن من فؤادك بشدة أم أنه مجرد ريح صيف، وطارق طيف، الحب هو حصيلة إعجاب دائم مشترك بين طرفين.

أما علمت عيناك أني أحبها كما كل معشوق عليم بعاشق

تحب الشابة الفتى أو الرجل الثري بسبب إعجابها في قدرته على الإنفاق، لكن ما إن يرفض أن تتمتع معه بالمال الذي كان السبب في ميلها إليه حتى تصيح بأنه غير جدير بحبها له، والكثير من الناس والشباب يخلط بين الإعجاب والحب.

ومـن الطرافة أن فتاة تحكي أن شخصا يحبها كثيرًا لأنه ينظر إليها كـثيرًا، وحين سؤلت عن كيفية حديثه معها وعن مواقفه تجاهها، تبين أنـه لم يكلمهـا أبـدًا ولم يحدث لقاء، والعجيب أنها تقول إنه سيتزوجها وتسأل بعفوية إن كانت ستوافق عليه أم لا!!

أرانـــي ســـأبدي حـــبه متعرضـــا وإن لم أكـن في الحـب مـنه بواثـق!

للـذين يعـتقدون أن الأرض تدور حول أنفسهم وأن الناس تنظر إلـيهم بإعجـاب في كل الأوقات، ليس كل من نظر إليك معجبًا بك، ربما يحمد الله على النعمة!

مـن الـسذاجة بمكانـة أن تختلق قـصص حـب واهمـة من نظرة إعجـاب سـريعة، ربمـا كانت هذه النظرة بلاغا كاذبا أشبه بالاتصالات المغرضة التي تزعج هواتف الطوارئ.

ليـست كـل نظـرة "أنـا معجـب بـك" تعني "أنا أحبك وأريد أن أتزوجك"، هناك اختلاف، لا تخلط الأمور بهذه الصورة الساذجة، هناك مـراحل لـتطور علاقـة معيـنة يجب أن ينتبه إليها، أعط الطرف الآخر فرصـة ليقتـنع بـك، وأنـت اختـبر نفسك أيضًا باقتناعك به، ربما هو حـيران ولا يـريد أن يتـسرع فـلا تكـن أخرق نزقًا تتخبط في مواقف معقـدة وهمجـية عاطفـية، الحـب حـزمة من المواقف النبيلة تزداد مع الـزمن، لدرجـة لا يمكن التغاضي عنها، وواقع الحال، الإعجاب ما هو إلا صدفة عابرة لا ينبغي تهويلها إلى دوي حب صارخ.

الـشاب اللـبق يـستطيع أن يلفت الانتباه بلباقة ومرونة، والشاب الظـريف يخطـو خطواته ببصيرة لا تجارى، يعرف المرأة التي تنتظره ولو

كانــت وســط جمهــور غفير، والإعجاب وحده لا يصنع حبا فالحب لا يمكن تمثيله.

تــستطيع أيـضا الـشابة أن تــسأل عــن صفة جميلة رأتها في الشاب بطريقة محترمة تعبر عن إعجاب ابتدائي حتى تلفت انتباهه إليها لتتيقن مــن منزلة اهتمامه بها، بهذا المنطق ينفصل الحاجز الرفيع بين الإعجاب والحب ويرى الجميع بعدها أي منقلب سينقلبون.

* * *

لا عليك

قولي! ماذا لديك؟

أو إن شئت

اكتبيه بخط يديك

تمامًا، كما لو أنه

خارجٌ من شفتيك

لا عليك

إنّ شوقًا يُكبت

سيخرج دمعًا من مقلتيك

سيمطر ندًى في وجنتيك

هاتي ما لديك

كلي آذان صاغية

وجوارحي

قد وهبتها وقفًا عليك

فاشرحي هيا

ماذا لديك؟

* * *

ردود وورود

تمعن أيها الرجل:

دعـني في الـبداية أناقـشك بلغـة العقـل الـتي تجـيد التحدث بها، وبعدها حاورني بلغتي التي أتقنها حتى أفهمها، أخبرني بصدق عن المرأة في خـضم مـسؤولياتك، ومن ضمن اهتماماتك ومن واقع حياتك ماذا تعـرف عــن كـيانها ومــشاعرها؟ أحاسيــسها وتفكيرهــا؟ أعماقهــا؟ تـصوراتها؟ عواطفها؟ ماذا تفهم عن تكوينها ونفسيتها؟ أمومتها؟ ماذا تعـرف عـن الـتغيرات والتقلـبات الداخلـية والنفـسية والمعـنوية التي تعتريها في فترات حياتها؟

أنـت فقـط تعرف أن تتمنى، وتحلم، تأمر وتنهى، تطلب، ترغب، تحب، تكره، ترفض طلباتي من دون أن تعرف أوحتى تحاول أن تفكر في احتـياجات وتطلعـات وأمنيات من سمحت لك بإرادتها أن تكون سيداً متوجاً على حياتها.

أرجــوك لا تــتكلم بإحــساس رجــل ولا تتــسرع في الإجابــة، فالموضــوع يستحق منك بذل الجهد والاهتمام والبحث والمعرفة، بكل أمانـة، اشعر ولو لمرة واحدة باحساس الزوجة الأنثى التي أمامك، افهم الإنسانة التي ترافقك طوال رحلتك ومشوارك.

اشـعر بأحاسيـسها العمـيقة، افهم مكوناتها، ومشاعرها الدفينة، اعـرف تقلباتها الفطرية ولا تلمس لحظات انفعالاتها التي لا تفتعلها ولا تتصنعها لكنها مصاحبة لها في تكوينها.

أرجـوك، لا تـرد علـى استفـساراتي وأنـت مـا زلت مصراً على التفكير بمنظورك ومفهومك وتصوراتك، فقد طلبت منك عزيزتك أن تفكـر بتفكيرها حتى تصل إلي عمق أحاسيسها وشفافيتها ورقتها التي قمـت أنـت بدفنها بيدك لعدم تمكنك من فهمها، هل حاولت ولو لمرة واحـدة في حـياتك أن تتخـيل أدوارهـا الـتي تمارسها؟ هل حاولت أن تتصور حجم مسؤوليات كل دور مطلوب منها.

كـم تحـتاج من جهود جسيمة ومتشعبة مجرد التفكير فيها يتعب تفكـيرك، فهـي تـبذل كل طاقتها لإسعادك وإسعاد كل من حولها عدا نفسها.

سـيدي، إن العطـاء غـير محـدد بفتـرة زمنية أو مرحلة معينة ولا يختـصر أو يقتصر، إن العطاء يرفع الإنسان ويعلو به عن أي ضعف أو ذل أو تـراجع، العطاء هو قمة الشموخ، اقرأ وتمعن لتفهم وتستوعب، أتمنى أن ترد علي الآن بأي لغة كانت.

جـاوبني بالعقـل أو بالعاطفـة لا فـرق عـندي المهـم ألا تتمسك بالحبال التي تعجبك وتوافق هواك وتواكب مزاجك معتبرًا للأمور التي تناسـبك، خـذ الموضوع بجدية من دون حذف ما لا تريد والإبقاء على ما تريد فالموضوع لا يتجزأ!

رد وورد:

أخجلـني حديثك ولا أملك إلا أن أنحني له احترامًا وتقديرًا، هذا أنـا عزيـزتي، لا أستطيع العيش من دونك، ربما أظلمكِ، ربما أهجركِ، ربمـا أغـضبكِ، لكـني والـذي سمـك الـسماء أحـبكِ، مهما تقمصت شخـصك أو حاولـت عـيش واقعـك يـومًا ما، لن أستطيع استيعاب

الفـروق الـتي خلقهـا الله بـيني وبيـنك، ولا يـسعني قبل أن أسرد لك اعـتذاراتي ومـبرراتي إلا أن أهـدي لـك هـذه القـصة من وحى الخيال أسـتطيع بهـا أن أوضـح لـكِ أني عاجـز عـن وضـع نفسي في مكانك السامي.

فقـد ذكـر فيما ذكر أن رجلاً سخط على زوجته مرة فتمنى أمنية فـسمع هاتفًـا يقـول: أطلـب مـا تتمنى! فرح الرجل، وقال شاكيا: أنا أذهـب للعمـل كـل يوم وأقضي ثماني ساعات متعبًا مرهقًا لأوفر لبيتي حـياة رغيدة ثم أعود إلى البيت لأجد زوجتي جالسة في البيت تستقبلني بنكـران الجمـيل، كـل ما أطلب ان أُخلق مكانها وتخلق في مكاني يومًا واحـدًا لتـرى ما أعانيه من أجلها ومن أجل الأولاد، فرد الهاتف: لبينا لك طلبك.

فـرح الرجل واستيقظ في صباح اليوم التالي ووجد نفسه قد تحول إلى زوجـته، ذهـب نشيطًا إلى المطبخ وطبخ وجبة الإفطار، ثم ذهب إلى مكـان الأطفال ليوقظهم ووجد صعوبة في ذلك فتناول الجميع الإفطار سـويا، وجـد غـرف البيت جميعها تبدو غير مرتبة والملابس مبعثرة ثم حمل همها ليعود إليها فيما بعد.

ذهـب بالأطفـال إلى المدرسـة مـستقلاً سـيارة العائلـة، رجع من المدرسة ليذهب لشراء حاجيات المطبخ لوجبة الغداء، وفي طريقه تذكر أنه يجب أن يمر على البنك ليجري عملية كانت قد أجلت ثم ذهب إلى البـنك ووجـد ازدحامًا ثم بالكاد استطاع أن ينهي العملية، استدار إلى مكـان شـراء متطلـبات المطبخ وقضى ساعة يتبضع ويفكر بما يشتهيه الأطفال ورب الأسرة.

تذكــر فيما بعد أن عليه أن يحضر لقاء أولياء الأمور في المدرسة ثم هــرع إلى البيت مسرعًا وأنزل المشتريات ثم عاد إلى المدرسة لينهي لقاء أولـياء الامــور بعد أن اكتشف أن الأطفال يحتاجون إلى رعاية أفضل في البيت.

الــساعة الآن الــواحدة ظهــرًا ليــبدأ الطبخ ويقوم بتنظيف وتنظيم البــيت ويكــنس قلــيلاً هنا ويلمع قليلا هناك، ثم تذكر أن هناك بعض الملابــس تحــتاج إلى غــسيل فلملمها بسرعة ليضعها في الغسالة، ليس هــناك الوقت الكافي فسارع إلى إحضار الأطفال من المدرسة، وفي طريق العــودة من المدرسة يتعارك الأطفال في المركبة فيصيح على طفل ويوبخ آخــر حتى وصل الى المنزل، يشرف على المطبخ ويأخذ الملابس المنتهية من الغسيل ليقوم بكيها وهو يشاهد التلفاز والأطفال في المنزل يلعبون ويمرحون فيقومون بكسر أحد الأدراج المهمة في المنزل، لا يعرف كيف يعاقبهم وهو يقوم بالطهي والكي في آن واحد.

تمــر الــساعات فــيأتي الــزوج من العمل ليأكل وجبة هنيئة ويأكل الأطفــال معهمــا، ثم يــذهب الأب الــذي صار أُمًا بالأطفال إلى غرفتهم ليــشرف علــى واجــباتهم المدرســية ويــتأكد مــن تلبية جميع حاجاتهم، يــشرف اليوم على نهايته وهو منهكٌ متعبٌ لا يستطيع الحراك فيذهب إلى غــرفة الــنوم لــيجد الزوج ينتظره ليؤديا دور الأزواج المتعارف عليه كمــا يجلــس الــزوج مــع زوجته، يسلم أمره للزوج بخجل من الرفض لينهي يوما شاقا ومتعبًا.

يــستيقظ في صــبيحة اليوم التالي يدعو بشدة يريد العودة كما كان رجلاً مستنجدًا بالدعاء مرة أخرى!

يعـود له الهاتف الأول، يفرح كثيرًا ويقول: أريد العودة كما كنت رجلاً، أرجوك لقد تعلمت الدرس!

يسمع الهاتف يقول له برحمة: قد أجيب لك طلبك لكن عليك أن تنتظـر تـسعة أشـهر كاملـة على نفس الحال فقد وقع الحمل من ليلة البارحة!

نعم، قد يكون هذا مصدر حزن لك عزيزتي أني لم ولن أفهمك أو أتفهـم متطلـباتك وتغيراتـك مهما حاولت تقمص شخصيتك، لكن هذا هو مصدر العظمة في خلقي وخلقك.

لقـد قـدر لـنا الاخـتلاف وخلقـنا متبايـنين، أحـبك كمـا أنت تتحمليـنني وأتحملـك، أتجـاوز عـن عـيوبك وتغفرين لي زلاتي، لست سـلطانا للحـب، ولا ملكـا مـن الملوك، ولا أملك عصا سحرية، كي أفـرض عليك محبتي، قد لا أملك ما يملكه غيري من المال كي ألبي لك جمـيع حاجاتـك الماديـة، لكـني أملـك لك قلبًا يفيض حبًا لك، فتات حنانه كاف بأن يغشاك من أعلاك حتى اخمصيك.

أحـاول بقدر استطاعتي أن أتفهم تغيراتك الفطرية في فتراتك كل شـهر، وسأتحمل حدة طبعك عند الحمل، أقدر لك تضحياتك جميعها مـن أجلـي. أنـت الـزوجة، والحبيبة، وأم الأبناء، والمعشوقة، ومصدر الإلهام، لا أعتقد أني أستطيع النجاح وأنت لست معي. قد تعتقدين أني أبحـث عـن عـشيقة، أو تعجـبني غانـية، أو فتاة غلاف سافرة تعرض جـسدها للجمـيع، لكـنهم جمـيعًا لا يـساوون موطـئ قدمك وإلا ما ارتـضيتك زوجـة لي، اخترتك لأقول لأبنائي هذه هي أمكم، قد بررت بكم بهذا الاختيار فلا تكونوا جاحدين لهذه النعمة.

أعرف أن عطائي لا يساوي شموخ عطائك، وصبري لا يساوي جسارة صبرك، أعرف أنك شكلت أحلامك لتتناسب مع أحلامي، وأنا ممتن لك بذلك أشد الامتنان، أنت أنا وأنا أنت، بمنطق كهذا المنطق نستطيع أن نعيش معًا، ونحيا معا، ونموت معًا، قد أكون عائقًا في طريق حلم كنت قد رسمته قبل أن تريني، لكنك قد تصبحين وحيدة مع ذلك الحلم وما أكره الوحدة مع النجاح.

قال لي المحبوب لما زرته   من ببابي قلت بالباب أنا
قال أخطأت تعريف الهوى   حينما فرقت فيه بيننا
ومضى عام فلما زرته   أطرق الباب عليه موهنا
قال من بالباب قلت انظر   فما ثم إلا أنت بالباب هنا
قال أحسنت تعريف الهوى   وعرفت الحب فأدخل يا أنا

فافتحي لي بابك يا أنا، ولا تنتبهي إلى الفروق التي بيننا.

* * *

رائحة الحُب

ـ صـدقني لم أكـن أقـصد أن أختـرق حـياتك بهـذا الشكل، لقد تسرعت في الحديث معك عن أمور كهذه!

ـ لكنك تعرفين أني رجل متزوج وأنتظر مولودًا جديدًا؟

ـ لا تلمـني فقـد حاولـت مـرارًا وتكـرارًا أن أكتم ما بي لكني لم أستطع.

ـ ماذا تريدين مني الآن؟

ـ آه.. أنا.. أنا.. لا أعرف كيف أتكلم، يجب أن تعدني أن تتفهم ما أعانيه، وتحترم ما أنا فيه؟

ـ صـمت لبرهة من الزمن كما هو معروف عنه، شديد الجاذبية، خلقه الهدوء، كان يعرف مسبقا بحدسه عما تعانيه ـ حسنٌ، أنا أستمع إليك؟

ـ تذكّـر أنك وعدتني أن تتفهم، سأقول لك شيئًا قد يكون غريبًا بعض الشيء ولكني سأقوله؟

ـ "إني أشـم رائحـة الحـب" جملـةٌ لطالما كان يرددها مع نفسه في مواقـف كهذه ـ أرجوك لا تقولي شيئا لا يمكن نسيانه فأنا للتو دخلت في حياة الاستقرار والزواج.

ـ أنا أحبك.. أنا أحبك.. أنا أحبك.. قالتها وهي تنفجر بالبكاء.. أرجـوك لا تـرد.. لا أريـد منك إجابة.. لا أعتقد أن أحدًا يعرف عنك

وعــن حياتك أكثر مني أنا.. أعرف أنك متزوج.. وأعرف أنك مستقر.. وأعــرف عــنك كــل شــيء.. أعــرف أيــن تذهب.. أعرف كل تفاصيل حــياتك مــنذ أن عــرفتك.. عــرفت كــل ذلك عنك من باب الفضول والاســتطلاع.. لا تــستغرب.. فطــيفك لا يغــيب عــني أبــدًا.. نعــم لا تستغرب.. صمتت قليلا..

لقــد تألمــت كــثيرا وأنــا الآن أشــعر براحة بعد أن قلت ما أريد.. أرجــوك لا تحتقــرني ولا تنظــر إلي بدافــع الــرحمة والرأفة.. كل ما أريده منك أن تعرف ما قلته الآن!

ـ بعــد أن شــعر أن زبــدًا قد انفجر في صدره من وقع كلامها ـ لكن.. أنا لا أعرف..

ـ لا تقــل شــيئًا.. ســأوفر الــسؤال عليك ـ وهي مضطرة لوقف ســيل الدمــوع الــذي خنقها ـ كل ما أريده منك أن تعطيني من حبك ووقتك وحنانك القليل.. أنا أعاني.. أنا...

ـ صــمت صــمتا رهيــبا لفتــرة من الزمن ـ من جهتها لم يعد يــسمع إلا تــنهدات متكــررة تخفت شيئا فشيئا ـ ثم انتقل بالحديث معها إلى أراضٍ أقل انزلاقًا، لو كان عندي قلبان.. صمت مرة أخرى بقــدر الــصمت الــذي سبقه.. ليتني أستطيع أن أخفف ما أنت فيه.. لكــني عاجــز في هــذه اللحظــة عــن الكلام والفعل.. أرجوك.. أنت تفهمين..

ـ بعد زفرة شديدة كادت أن تخرج نفسها معها ـ لا عليك.. أنت تــستحق أن تحــيًا حــياة ســعيدة.. أنا لا أعرف ماذا أفعل الآن.. لقد أخــرجت لــك كــل مــا في صــدري وأشــكرك علــى اســتماعك إلي

وتفهمـك لمـا أنـا فيه، أعتقد أني أستطيع أن أعيش بعد هذه المكالمة فهي تعني لي الكثير..

ـ بتأثر شديد وبلطف بالغ ـ ليتني..

ـ أشـكرك.. هذا يكفيني.. لا أريد أن أجعلك تمر بما أنا فيه.. أنت فعلاً تستحق أن تكون سعيدًا.. وأقفلت الهاتف وهي محرجة!

ـ بعـد أن شعر بوخزة ذكرى لحدث قد ألّم به، جعلته يتلوى من الألم.. لم يكن مستعداً لموقف كهذا ـ قالها ثلاثا ـ يا ليت معرفتي إياك لم تكن، يا ليت معرفتي إياك لم تكن، يا ليت معرفتي إياك لم تكن.

لم يكـن يعـرف أنـه هـو الـسبب فقد أخضع قلب الشابة الفاتنة بمئات عبارات الإطراء بعذوبة متناهية كانت السبب فيما هي فيه.

* * *

حمامتان

حمامتان بدتا كزوج حمام سعيد كل فرح برفيقه في الفلاة، الذكر يدور حول أنثاه بشكل ملفت للنظر، متفاخرًا، يرفع عنقه إلى الأعلى تارة ويخفضها تارة أخرى وبصوت مشحون بالطلب وبحركة نشطة يتقرب إليها، تتغنج الأنثى فترسل له نظرة سريعة ثم تبتعد عنه قليلاً ويجري هو وراءها باشتياق أشد مما كان عليه، مشهد لزوج حمام الحب قد ملأ كل جانب من جوانب الحياة حولهما.

لم يكن يعلم هذا الزوج الجميل من الحمام أن مشهدًا فاجعًا ينتظره من فتى حدث مراهق أخرق قد استعار للتو بندقية هوائية من قريب له ستودي ـ البندقية ـ بحياتهما معا في دقيقة واحدة، كان ذلك المشهد أحد المشاهد التي فرضت على قلبي احتراما لكل لحظة حب لا تستحق الانتباه، خلفت تلك الحادثة معها ألما وحسرة وأخرجت مشاعر لم تكن موجودة وأحيت قلبا لم يكن فيه رحمة.

في دوران الذكر حول أنثاه، وفي غدوه ورواحه، في تلك اللحظات الجميلة التي جمعت الحمامتين في مكان واحد، يتقرب كل منهما إلى الآخر بتودد وسرور، استطعت أن أصوب جهة الأنثى وأرديها قتيلة أبحث عن متعة الصيد التي أشاهدها في برامج الصيد والفروسية، لم تكن الفرحة غامرة عندما شاهدت ما فعل ذكر الحمام عندما وجد قرينته قتيلة أمامه. لم يطر فزعا من المشهد، لكنه توقف بذهول كآدمي فزع، بدت عليه هيئة من ألقى نظرة خاطفة على عالم

آخر وأخذ يدور ويدور حولها محزوناً نادبًا كأم فقدت وحيدها.

ألفت حمام الأيك وهي نضيرة   واليوم آلفها بكسر الحاء

أقسم بالله العظيم قسمًا لا حنث فيه على صدق ما أقول وأروي لكم، أني أطلقت رصاصة أخرى لترديه هو أيضًا صريعًا بجانبها، بين قتلته وقتلتها ثوان معدودة،لم يتحرك أو يغادر المكان بعد موتها حتى أتته رصاصة الرحمة من البندقية نفسها فماتا جميعًا في مشهد واحد أمامي، كانت أنثاه عذبة ولفرط عذوبتها لا زلت أرى صورتها ماثلة أمامي كلما تذكرت الحدث، وإنك حين تعود إلى الماضي وتتذكر بعض الذكريات تكون مكسورًا.

خلد ذلك المشهد في قلبي ذكرى أليمة ما كنت لأنساها أبدًا، كنت القاتل، وكان القتيلان حمامتين، رأيت الافتداء في أسمى صوره وأروع عبره، علمتني الحمامتان كيف يكون الموت من أجل الحب سهلاً ورأيت أن انتهاء الاثنين معاً أفضل بكثير من انتهاء محب عن محبوبه.

تعلقتها طفلا صغيرًا وناشئًا   وها رأسي كبيرًا بها سيشيب

وهأنذا، ألتزمُ الصمت دائما كلما مر علي المشهد معذبًا برؤى الموقف يجيء علي غضبا كلما تذكرته.

علي ونينو

علـي ونيـنو روايـة حـب غامـضة، ولـدت مجهولة الكاتب، وفي ظـروف عـصيبة، في زمـن حروب وسقوط دول، بين حبيبين مختلفين جـداً، مـن ثقافتين متباينتين، من تقع عينه على الرواية والقصة ويقرأ تفاصـيل ولادتهـا، ونشرها، ثم إعادة طبعها، ثم ترجمتها، استنتاج وحيد لا ثـاني لـه يمكـن أن يخـرج بـه القـارئ، وهو أن مؤلفها هو فعلاً بطل القصة.

تـرك المؤلـف العـالم بعـده يحتار في شخص الكاتب الحقيقي ومن هو، كما شغل المتنبي أهل الشعر والأدب عندما قال:

أنـام مـلء جفونـي عـن شـواردها ويـسهر الخلـق جـراها ويختـصم

نـشرت الـرواية للمـرة الأولى في عام 1937 في فيينا باللغة الألمانية باسـم مستعار فالكاتب الحقيقي لا يزال مجهولاً وترجح الترجمة أنه كان لاجـئاً سياسياً في أوروبا، نشرت الرواية بالصدفة بعد أن عثرت عليها "جينا غرامان" الالمانية بين كتب مستعملة.

سـتجد نفسك في قضية كما القضايا التي يحلها "شارك هولمز" إذا حاولـت أن تـضع إصبعك على دلائل وقائع القصة وأبطالها وعلاقتها بالكاتب الحقيقي.

الحـب في القـصة يـدخل كل الاختبارات التي يمكن أن يمر بها أي محـب قـسا عليه الوشاة والأصحاب والأهل جميعًا، فلم يبق أمامه بعد انهـيار الآمـال سـوى اليأس والبكاء والشرود عن الناس، كانت القصة

بـين علـي خان شيرفانشير الأمير المسلم القوقازي الأذربيجاني المتحدر من أسرة شيعية جعفرية، ونينو كيباني الجورجية المسيحية المتأوربة كما يـصفها في الـرواية "أجمـل فتـيات العـالم الـتي تأكل بالشوكة والسكين وتعـرض صدرها وشعرها للعيون.. يا لهؤلاء المسيحيين.. ليسوا رجالاً حقيقيين!"

القـصة مـرجح أنهـا إبان الحرب العالمية الأولى وصراعات سلطان الإمـبراطورية العثمانية محمد رشيد وشاهنشاه إيران أحمد شاه وقياصرة الروس آل رومانوف.

"علي ونينو" تحفة أدبية لا تمجّد الحب رومانسياً إنما تختبره في فرن الحـياة الحـارق وعلـى سندان صراعات الطوائف وبين مطارق الأعراق مـن وجه، وتعرض التاريخ عبر قصة حب من وجه آخر، بين الإسلام القـوقازي والمسيحية الأرثوذكسية وبين الشرق والغرب وبين الصحراء والجبل وبين الولاء للقلب والولاء للعقيدة[1].

انتهت قصة حب علي ونينو مع انتهاء الجمهورية التي كان يعيش فـيها كما وردت في نهاية القصة على لسان الكابتن إلياس "انتهت حياة جمهوريتنا كما انتهت حياة علي خان شيرفانشير".

* * *

(1) "علي ونينو" قصة حب تجمع سحر الملحمة إلى مغامرات الرومانس. جريدة المستقبل. أحمد عمر.

عظمة في الحب

مـر رجل مع رفيقه على فلاة وإذا بامرأة كأنها فلقة القمر، بجانب قـبر، فقـالا لهـا لمـن هـذا القـبر؟ فتنفـست الصعداء، وقالت هذا قبر خليلـي، كـان يظهـر ودي، ويحـسن رفـدي، فمات فدفنته عندي. قال أحـدهما فهـل لك فيمن يجدد ما قد غاب من وده، ويزيدك إحسانًا إلى رفـده، فتغير وجهها وأسبلت دمعتها وقامت مولية وهي تقول بصوت حزين:

وإنـــي لأســـتحيه والـــترب بينـــنا   كمـا كـنت أسـتحييه حـين يرانـي

فـــإن تـــسألاني في هـــواه فـــإنني   رهيـــنة هـــذا القـــبر يـــا رجـــلان

لا يضاهي هذا الحدث في سموه سوى حالة غريبة من حالات الوفاة الـتي حدثت في عصرنا الحديث، حين شهق الزوج أنفاسه الأخيرة بين يـدي زوجـته بعد أن نظر إليها بعينين بريقهما يخبر عرفانا بجميل وهو يقـول: "الله وحـده يعلم كم أحببتك" لافظًا أنفاسه الأخيرة بين يديها، عـندها تمـنت الزوجة ولو للحظات توقف الزمن كي لا يمضي دون أن يعـرف كـم أحبـته علـى الرغم من شكوكها فيه، واجتاحتها رغبة لا تقـاوم في أن تـبدأ حياتها معه من جديد حتى يتمكنا من قول كل الذي امتنعا عن قوله ويفعلاً كل الذي امتنعا عن فعله.

ودعـــتني يـــوم الفـــراق وقالـــت   وهـي تبكـي مـن لـوعة الافـتراق

مـا الـذي أنـت صـانع بعد بعدي   قلـت قولـي هـذا لمـن هـو باقـي

لا يقـتلك سوى شخص صرح بحب دفين فقال "أحبك" ثم ذهب ولم يعـد، في مـثل هـذه اللحظات، تظهر عظمة الحب لتجد نفسك في الحد الفاصل بين جرعة الشفاء وجرعة المرض.

يمـوت الهـوى مـني إذا مـا لقيـتها ويحـــيا إذا فارقـــتها فـــيعود

قـال الثوري حدثني جبلة بن الأسود قال: خرجت في طلب إبل لي ضـلت، فمـا زلـت في طلبها إلى أن أظلم الظلام وخفت الطريق فـسرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدهما فبينما أنا كذلك إذ سمعت صـوتاً حـسناً بعـيداً وبكـاء شـديداً فشجاني حتى كدت أسقط عن فرسي، فقلت لأطلبن الصوت ولو تلفت نفسي فما زلت أقرب إليه إلى أن هـبطت واديـاً فإذا راعٍ قد ضم غنماً له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم:

وكـنت إذا ما جئت سعدى أزورها أرى الأرض تطـوى لــي ويدنــو

مـن الخفـرات البـيض ود جليسها إذا مـا انقضت أحدوثة لو تعيدها

قـال، فدنـوت مـنه وسـلمت عليه فرد السلام وقال: من الرجل؟ فقلـت: مـنقطع به المسالك أتاك يستجير بك ويستعينك، قال: مرحباً وأهـلاً انـزل علـى الـرحب والسعة، فعندي وطاء وطيء، وطعام غير بطيء، فنزلت ـ يتحدث الراوي ـ فنزع شملته وبسطها العاشق الحزين تحتي ثم أتاني بتمر وزبد ولبن وخبز ثم قال: اعذرني في هذا.

فقلـت والله إن هـذا لخـير كـثير، فمال إلى فرسي فربطه وسقاه وعلفـه فلمـا أكلـت توضـأت وصـليت واتكـأت، فإني لبين النائم والـيقظان إذ سمعت حس شيء وإذا بفتاة قد أقبلت من كبد الوادي

كالـشمس حسناً فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إلـيها وجعـلا يـتحادثان فقلـت هـذا رجـل عربي ولعلها حرمة له، فتـناومت ومـا بي نـوم فمـا زالا في أحـسن حديث ولذة مع شكوى وزفـرات إلا أنهمـا لا يهـم أحـدهما لصاحبه بقبيح فلما طلع الفجر تنفسا الصعداء وبكى وبكت.

ثم قـال لهـا: يـا ابـنة العـم سألتك بالله لا تبطئي عني كما أبطأت اللـيلة، قالـت: يـا ابن العم أما علمت أني أنتظر الواشين والرقباء حتى يـناموا ثم ودعـته وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويبكي، فبكـيت رحمـة لهمـا وقلـت في نفسي والله لا أنصرف حتى أحل ضيفاً عليه الليلة وأنظر ما يكون من أمرهما.

فلمـا أصـبحنا قلت له: ـ جعلني الله فداءك ـ الأعمال بخواتيمها وقـد نـالني أمـس تعـب شديد فأحب الراحة عندك اليوم، فقال: على الـرحب والـسعة لو أقمت عندي بقية عمرك ما وجدتني إلا كما تحب ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلي فأكلت وأكل معي إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل.

فلـم أزل معـه نهـاري ذلـك ولم أر أشفق منه على غنمه ولا ألين جانـباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان، ولم أعلمه بشيء مما رأيت فلما أقـبل اللـيل وطأت وطائي فصليت وأعلمته أني أريد الهجوع لما مرّ بي من التعب بالأمس.

فقـال لي: نم هنيـئاً، فأظهرت النوم ولم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيهة مـن اللـيل فأبطـأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً وزاد عليه الأمر فبكى.

ثم جـاء نحـوي فحركني فأوهمته أني كنت نائماً فقال: يا أخي، هل رأيت الفتاة التي كانت تتعهدني وجاءتني البارحة، قلت: قد رأيتها، قال: فـتلك ابنة عمي وأعز الناس علي وإني لها محب ولها عاشق وهي أيضاً محـبة لي أكثـر مـن محـبتي لهـا، وقد منعني أبوها من تزويجها لي لفقري وفـاقتي وتكـبر علـي فـصرت راعياً بسببها فكانت تزورني في كل ليلة وقد حان وقتها الذي تأتي فيه واشتغل قلبي وتحدثني نفسي أن الأسد قد افترسها، ثم أنشد يقول:

مـا بـال مـية لا تأتـي كعادتهـا أعاقهـا طـرب أم صـدها شـغل

نفـسي فداؤك قد أحللت بي سقما تكـاد مـن حـرة الأعـضاء تنفصل

قال: ثم انطلق عني ساعة فغاب. فلما رجع أتى بشيء فطرحه بين يـدي فـإذا هـي الفتاة قد قتلها الأسد وأكل أعضاءها وشوه خلقتها ثم أخـذ الـسيف وانطلـق غاضـبًا فأبطـأ هنـيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحه.

ثم قال: بالله يا أخي إلا ما قبلت ما أقول لك فإني أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة فإذا أنا مت فخذ عباءتي هذه فكفني فيها وضم هذا الجـسد الـذي بقـي مـنها معـي وادفـنا في قبر واحد وخذ شويهاتي (غنمـي) هـذه وجعـل يـشير إلـيها فسوف تأتيك امرأة عجوز هي والـدتي فأعطهـا عـصاي هـذه وثـيابي وشويهاتي وقل لها مات ولدك كمـداً بالحـب فإنهـا تمـوت عـند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا مني السلام.

قـال: فـوالله مـا كـان إلا قليلا حتى صاح ووضع يده على صدره ومات لساعته، فقلت: والله لأصنعن له ما أوصاني به فغسلته وكفنته في

عـباءته وصليت عليه ودفنته ودفنت باقي جسدها إلى جانبه وبت تلك اللـيلة باكياً حزيناً فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهي كالولهانة فقالـت لي: هـل رأيـت شـاباً يرعـى غـنماً فقلـت لها: نعم، وجعلت أتلطـف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي وأنـا ألاطفها إلى أن أقبل الليل وما زالت تبكي بحرقة إلى أن مضى من اللـيل برهة فقصدت نحوها فإذا هي مكبة على وجهها وليس لها نفس يـصعد ولا جارحـة تتحـرك فحركتها فإذا هي ميتة فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمـت فـشددت فرسـي وجمعـت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كـنا علـى ظهـرها والدهـر يجمعنا   والـشمل مجـتمع والـدار والـوطن

فمــزق الدهــر بالتفــريق إلفتــنا   وصــار يجمعــنا في بطـنها الكفــن

قال: فأخذت الغنم ومضيت إلى الحي لبني عمهم فأعطيتهم الغنم وذكـرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحي بكاءً شديداً ثم مضيت إلى أهلي وأنا متعجب مما رأيت في طريقي!

مـن لا يتأثـر لـسماع قـصةٍ مثل هذه القصة فليفتش عن قلبه فإنـه لا قلـب لـه، ولا نقـول لـه إلا كمـا قال صلى الله عليه وعلى آلـه وسـلم للأقـرع ابـن حـابس: "أو أملـك إن نزع الله من قلبك الرحمة".

كـــنا جمـــيعا والـــدار تجمعـــنا   مـــثل حـــروف الجمـــيع ملتــصقة

والـــيوم جـــاء الـــوداع يجعلـــنا   مـــثل حـــروف الـــوداع مفترقـــة

فيمن صادقت فترة من الزمن زميل إفريقي من غانا وكان قد فقد زوجته الأولى وهي تضع له مولوده الأول وهو برفقتها تلفظ أنفاسها الأخيرة بين يديه تودعه متألمة من طلقات الولادة.

كان يصف لي حياته معها وكيف أنها كانت نعم الزوجة ونعم الحبيبة لم ير منها شرًا قط، وهو يتحدث عنها ويصف لي تلك اللحظات التي كان ينظر فيها إلى ملامح زوجته ويستمع إلى كلماتها الاخيرة وكأنها وهبت له حياةً لمخلوق جديد يسعده، كل ذلك مقابل حياتها هدية له، عندما تعمق في وصفه للفراق واستذكاره لأيامٍ سعيدةٍ قضاها معها فذكر فيما ذكر دفنه لها وحملها بين يديه إلى اللحد وهو يتذكر كل عضو من أعضاء جسدها الذي سيوارى الثرى، تكاثر الدمع في محاجر عينيه ولم يسقط بعد، في اللحظة بين الشهقة والدمعة، وفي أثناء حديثه، لم أستطع إخفاء تألمي، تظاهرت بالانشغال لأخرج من عنده مصطنعًا عذرًا حتى أتخلص من زفرة أسى تركها حديثه في قلبي.

كان الألم ـ وأنا أسمعه ـ ينتقل تدريجياً من جميع أجزاء جسدي كله ليستقر في حلقي على شكل غصة.

في الحب روعات وتعذيب وفيه يا قومي الأعاجيب
من لم يذق حبا فإني امرؤ عندي من الحب تجاريب

ومن عظماء الحب خرساء ذُكرت في الكتب رآها رجل في البادية لا تتكلم فقال: أخرساء هي؟ قيل له: لا، ولكن زوجها كانت تعجبه نغمة صوتها فتوفي عنها، فآلت أن لا تكلم بعده أحداً.

وفي أخبار النساء لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه حزنت عليه امرأته نائلة بنت الفراصة الكلبي حزناً شديداً وكانت لا تزال شابة فقالت: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب وقد خفت أن يبلى حزن عثمان في قلبي فدعت بفهر فكسرت به أسنانها، وقالت: والله لا يقعد رجل مني مقعد عثمان أبدًا وخطبها معاوية فبعثت إليه أسنانها وقالت: أذات عرس؟ وقالوا: لم يكن في النساء أحسن منها ثغراً.

* * *

فارسية عفيفة

قيل لابنة ملك من ملوك فارس وقد أجهدها عشق رجل من رجال كانوا يعملون لأبيها: لو رَوحت عن قلبك بالاجتماع معه كف ذلك عن وجدك!

قالت: إن الأمر على ما تصفون، ولكن ما عذري إذ هتكت ستري، وأظهرت أمري عند من لا يلزمه عاري، ويرغمه اشتهاري، والله لا كان هذا أبداً.

* * *

دراسة

في دراسة ركزت على المخطوطات والرسومات في دورات المياه العمومية في المدارس والجامعات وبعض المرافق العامة، خرجت الدراسة بأن المرافق الخاصة بالرجال احتوت على رسومات أكثر إباحية وأشياء تتعلق بالجنس أكثر منها بالعاطفة.

أما في المرافق الخاصة بالنساء فكانت الرسومات معظمها يدور حول الحميمية من رسومات قلب حب وسهم يخترق القلب وفلانة تحب فلان وبعض المقتطفات الأدبية عن الحب[1].

عند الغرب مقولة تقول: "الرجال يصطنعون الحب ليحصلوا على الجنس، بينما النساء يمنحن الجنس لكي يحصلن على الحب".

* * *

(1) “Love and Need” Thomas Merton

النظرات

لحديث العيون وللنظر قبل وقوع الحب حظوة ومنزلة شديدة التأثير على قلوب العاشقين، ومخطئ من يظن أنه لن يتأثر ولن يرتعد أمام رمش مقوس من عين نجلاء ساحرة تأسر الألباب.

هذه العيون وهذه الحدق فليدن من بفؤاده يثق
ما الحب إلا مسلك خطر عسر النجاة وموطئ زلق

وإنك لتعرف مغزى بعض من حديث العيون وكأنه يحدثك بمكبرات الصوت، نظرة طلب ومبتغى تناديك بكل رقة وتقول إياك أعني، ولغة العيون مفهومة عند المحبين لا تحتاج إلى ترجمة.

فالعين تنطق والأفواه صامتة حتى ترى من صميم القلب تبيانا

يقتلننا ولا نعرف الفرار منهن إذا ما أردن بنا شيئًا.

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

العاشق الفطن هو الذي يجيد لغة العيون ويعي أن العيون ليست للرؤية فقط، يتعامل معها كوسيلة لفهم ما في النفوس، يقول بن القيم: "إن العيون مغاريف القلوب بها يعرف ما في القلوب وإن لم يتكلم أصحابها".

بعض النظرات تغني بشكل كامل عن العبارات لأنها تركت تأثيرها بأجمل تعبير يمكن أن تصفه كلمة، لهيب بعضها يمر بجانبك

كالعاصفة العاتية تحس بها ولا تستطيع السيطرة عليه، قيل لأحدهم: ما الـذي يقهـرك؟ قال: شيئان يقهراني ولا أملك نفسي عندهما، النظر إلى الوجه الحسن، وسماع عذب الشعر.

العين مرآة الروح، والنظرة العجلى إذا ابتليت بها، فإنك لا تحتاج لأن تتـبين مـدى تأثيرهـا كمـا تتبين من تفاصيل الصوت ليعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية!

إنـي امـرؤ مولـع بالحـسن أتـبعه   لاحـظ لـي فـيه إلا لـذة النظـر

تأثير نظرات مقدمات الحب يظهر واضحًا جلياً من أول وهلة ولا يخـدع في معظـم الأحيان، بل إنه يفضح أحيانًا وخاصة إذا رأت العين من قل أن ترى مثله، أو تمل النظر إذا رأت شكله.

العـين تفقـد مـن تهـوى وتبـصره   وناظـر القلـب لا يخلـو مـن النظر

وفي حـديث العـيون إشـباع عاطفي ونفسي يحس به من يعيشه، فالنظـرات الـتي تـنم عن الحب والإعجاب عند المتزوجين على سبيل المـثال تغـني عـن أداء الواجـبات الـرسمية العاطفـية أو حـتى عن تبادل كلمـات المـودة، بـل كـثير منها يتم عبر إشارات غير لفظية من خلال تعابير الوجه ونظرات العيون التي لها سحر على القلوب.

فتراهمـــا في كـــل مـــا التقـــيا   يتناجـــيان بألـــسُنِ النظـــر

ولا تـستهن بلغـة العـيون فـإن ما تعبر عنه العيون في لحظات قد يعجز اللسان عن قوله في ساعات.

* * *

رائعة المجنون[1] "المؤنسة"

تذكـرتُ ليلـى والـسنين الخوالـيا وأيـام لا نخشى علـى اللهـو ناهيا
ويـوم كظـل الـرمح قـصرت ظلـه بليلـى فلهانـي ومـا كـنت لاهـيا
بـثمدين لاحـت نار ليلى وصحبتي بـذات الغضى تزجى المطي النواجيا
فقـال بـصير القـوم: لمحـة كـوكب بـدا في سـواد اللـيل فـردا يمانـيا
فقلـت لـه: بـل نـار ليلـى توقدت بعلـيا تـسامى ضـوؤها فـبدا لـيا
فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
فـيا لـيل كـم مـن حاجة لي مهمة إذا جئـتكم باللـيل لم أدر مـا هـيا
خليلـــي إن تبكيانـــي ألـــتمس خلـيلًا إذا أنـزفت دمعـي بكى ليا
فمـا أشـرف الأيفـاع[2] إلا صـبابة ولا أنـــشد الأشـــعار إلا تـــداويا
وقــد يجمــع الله الـشتيتين بعــدما يظــنان كــل الظــن أن لا تلاقــيا
لحـــى الله أقـــواما يقولـــون: إنـــنا وجـدنا طـوال الدهر للحب شافيا
فـشب بـنو ليلـى وشـب بنو ابنها وأعـلاق ليلـى في فـؤادي كمـا هيا
إذا مـــا جلـــسنا مجلـــسا نـــستلذه تواشـــوا بـــنا حتـــى أمـــل مكانـــيا
ولم ينـسني ليلـى افـتقار ولا غنـى ولا تـوبة حتـى احتضنت السواريا

---

(1) قيس بن الملوح. "ديوان مجنون ليلى" شرح د. يوسف فرحات.

(2) التل المشرف.

خليلـــي لا والله مـــا أملـــك الـــذي قـضى الله في ليلـى ولا ما قضى ليا
قــضاها لغــيري وابتلانـــي بحــبها فهــلا بــشيء غــير ليلــى ابتلانــيا
فلـــو كـــان واش بالـــيمامة داره وداري بأعلـى حضرموت اهتدى ليا
ومـــاذا لهــم لا أحــسن الله حـــالهم مـن الحـظ في تـصريم ليلى حباليا
فـيا رب سـوِّ الحـب بـيني وبيـنها يكـــون كفافًـــا لا علـــي ولا لـــيا
فمـا طلـع الـنجم الذي يهتدى به ولا الـصبح إلا هـيجا ذكـرها لـيا
ولا سـرت مـيلا من دمشق ولا بدا سـهيل لأهـل الـشام إلا بـدا لـيا
ولا سمــيت عــندي لهـا مــن سمــية مـن الـناس إلا بـلَّ دمعـي ردائـيا
ولا هـبت الـريح الجنوب لأرضها مـن اللـيل إلا بـت للـريح حانـيا
فـإن تمـنعوا ليلـى وتحمـوا بلادهـا علـيَّ فلـن تحمـوا علـي القوافـيا
فأشـــهد عـــند الله أنـــي أحـــبها فهـذا لهـا عـندي فمـا عـندها ليا؟
أعــد الليالــي لــيلة بعــد لــيلة وقـد عـشت دهـرا لا أعـد اللياليا
وأخـرج مـن بـين البـيوت لعلـني أحـدث عـنك النفس بالليل خاليا
أرانـــي إذا صـــليت يممــت نحــوها بوجهـي وإن كـان المـصلى ورائـيا
ومـــا بـــي إشـــراك ولكـــن حـــبها وعُظْـمَ الجوى أعيا الطبيب المداويا
أحـب مـن الأسمـاء مـا وافـق اسمها أو اشـــبهه أو كـــان مـــنه مدانـــيا
خليلـي مـا أرجو من العيش بعدما أرى حـاجتي تـشرى ولا تشترى ليا
وتُجــرِمُ ليلـــى ثـــم تـــزعم أنـــني سلوت ولا يخفى على الناس ما بيا
يقــول أنــاس علــى مجـنون عامـر يـروم سـلوًّا قلـت أنـى لمـا بـيا

بــي الــيأس أو داء الهــيام أصــابني فإيــاك عــني لا يكــن بــك مــا بــيا

فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي وأنــت الــتي إن شئت أنعمت باليا

ألا لـيت شـعري مـا لليلى وما ليا ومـا للـصبا مـن بعد شيب علانيا

علـى مـثل ليلـى يقـتل المـرء نفسه وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا

خليلــي إن ضــنوا بليلــى فقــربا لـي النعش والأكفان واستغفرا ليا[1]

---

(1) بتصرف.

نظرة عابرة

إذا جمع بك القدر بكيان لطيف يوما ما، وفي مكان ما، وفي زمن ما، هز ذلك المخلوق اللطيف كيانك، وأثار مشاعرك، فتلك نعمة منّها الله عليك ليشعرك بلذة الحب الذي يتحدث عنه الناس، على طول خط الحياة، نصادف أشخاصاً كثيرين يحدث معهم ذلك الشعور النبيل في الميلان المفاجئ عندما تشعر أنك في بداية شيء ما، تلك النبضة المربكة ليست دليلاً قاطعًا على الحب البتّة، لكنها لذيذة تعطيك نكهة وطعما لحب حقيقي ربما تعيشه يومًا ما.

لقد جل هذا الحب حتى كأنه سراب تراءى لامعا لعيان

من الناس من يكتفي باعتبار الحب نظرة عابرة حدثت للتو لم يخطط لها ووقعت عن غير قصد تمتلئ بسناها الروح وهذا شبيه بالحب، العاطفة المحمومة التي تصاحب تلك النظرات العابرة التي تصادفك في حياتك بين الفينة والأخرى هي شعور جميل نبيل لا علاقة له بالحب، تستطيع أن تكتفي بتلك النظرات وببعض إطراءات المحيط الذي حولك وهذا شعور أيضًا جميل بمثابة شحنة عاطفية مجزية تحل محل قصة حب طويلة.

مثل هذه الإطراءات تساعد على تخفيف حدة الانطباع بعدم وجود حب في حياة الشخص.

خليليّ إن الحب أول مرة مزاح ويغدو بعد ذلكم جدا

الحـب يمـر بمـراحل عـدة وهـو بتعريفه لا يمكن أن يصل إلى حد الكمال لكنه يشارف حدود الكمال إذا تركنا رحلة البحث عن الكمال فيه!

يمكن أن تحب شخصًا من أول وهلة وقعت عيناك عليه ـ أنت في الأصـل ـ لا يمكـنك العـيش معـه ولـو للحظـة واحدة أو أن تتخيله شريكًا لحياتك يومًا ما، وهذا ميول عارض.

ذلـك الغـريب الـذي أخـذ بلـباب عقلك وبصرك وسط الزحام وجعـل نبـضات قلـبك تتـسارع لا يعـني هـذا الحدث أنه هو شريك حياتك المرشح والجزء المفقود الذي لطالما بحثت عنه.

لا يوجد شيء اسمه وجدت "شريك حياتي"، شريك الحياة يتشكل مـع الـزمن ويظهـر معدنـه بمـرور الوقت على أنه فعلاً شريك للحياة بجلالة قدر المسمى "شريك حياة".

* * *

حُب أو لا حُب

الإنـسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يملك القدرة على الابتسام والضحك، فإذا لم يطرق الحب أبوابك فلا داعي لأن تكون بائسًا حزينًا دائما، فقد يكون اللا حب أفضل بكثير من الوقوع في الحب، فكم من محب كانت له حاء الحب حاء حرقة وباء الحب باء بلاء.

الحب باختصار حدث لا تلغيه الأحداث من الذاكرة، ولا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعرًا.

مـــا أعجـــب الحـــب في مذاهـــبه ... مـــا ينقـــضي القـــول في عجائـــبه

لم أر داء ولا دواء لـــــــــــــــــه ... إلا وفي الحـــب مـــا يقـــاس بـــه

مــن جــرب وشــاهد يستنتج أن الاستقرار هو أهم شيء في الحياة ولــيس الحــب وحــده أو حــتى السعادة وحدها، لأن الحياة بلا استقرار والــزواج بلا استقرار أمر لا يحتمل، كثيرون هم من لا يعرفون الشعور بالاستقرار عند اقتراب النوم!

لا تعرف ربما يصادفك حب في أثناء بحثك عن شيء آخر!

* * *

أرجوك هل تتزوجني؟

تــواجه البشرية في وقتنا الراهن صعوبات في إرضاء طرفي المعادلة، آدم وحــواء علــى الــسواء، مــن أجــل حــياة مليئة بالحب والاستقرار، ومؤســسة الــزواج، التي تعنى بالمجتمع الناجح، والنواة الصلبة لتماسك اللحمــة العامــة في بلــد معــين، هــذه المؤسسة الربانية تعاني الكثير من المــشاكل بسبب ممارسات يقترفها الجانبان، آدم وحواء، هذه الممارسات تجعل من تاج الحب "الزواج" أمرًا ثانويًّا.

مــن إحــدى النــتائج لــتلك الصعوبات، نلاحظ أن معظم النساء الــناجحات تــتقلص الفرصة لديهن في الحصول على زوج لأن المعادلة صــعبة في هذه الحالة، بشكل أوضح، هب أن فتاة جميلة في سن الزواج بــدأت حــياتها الدراســية في الجامعــة وقــضت عــشر ســنوات متتالــية للحصول على درجة الدكتوراه في مجال معين.

مــن الطــرف الآخــر، شــاب بدأ في نفس الوقت وأنهى دراسته في نفــس الــوقت وبــدأ الاثــنان ـ منفــصلين كلًّا على حدة ـ في التفكير جديًا بالاستقرار وتكوين أسرة وبيت.

الشاب في هذه الحالة، بحصوله على المكانة الاجتماعية والمال الذي ســوف يجنيه من شهادته الدراسية، كل ذلك يجعل من احتمال حصوله علــى زوجــة كبيرًا جدًا، وفرصته رائعة مع الفتيات اللاتي هن في سنه، أو أصغر منه، أو أكبر منه أحيانًا.

أمــا في الحلقــة الأضــعف، الفــتاة الجميلة، مع ما تملك من مكانة

مـرتفعة اجتماعـيا، وتميـزها علـى قريناهّا من الفتيات، ستجد أنه من الـصعب أن تحصل على الزوج المناسب لها لقلة الرجال المؤهلين الذين يكـبروها سـنا مقارنـة بمن هم أصغر منها سنا ويفوقوها علما، ولعدم وجود مرشحين يتناسبون مع مكانتها في ذلك الوقت.

وطبـيعة الـرجل العامـي لا تـشجعه على الاقتران بمن تكبره سنًا وعلمـا ومكانـة اجتماعـية، أضف إلى ذلك طبيعة المرأة التي تشجعها علـى الاقتـران بـرجل يملـك مـا تملـك أو أكثـر مـن إنجازات علمية ومدخول مادي أوفر.

مـن المـتعارف علـيه، أن يتـزوج الأسـتاذ الجامعي من مدرسة أو طالبة، والدكتور الطبيب من ممرضة أو مريضة، لكن من النادر أن نرى عكـس ذلـك، والحـديث الـسابق لا يعـنى أن نجاح حواء يتعارض مع فرصتها في الحصول على زوج، لكنه يقلل من فرصة وجود اختيارات معينة بالنسبة لها، هذا إذا لم تبقَ غير متزوجة"عزباء".

حـتى نـضفي علـى كلامـنا هذا طبعة من الأرقام لأن المثل يقول: "الأرقـام تـتكلم احـيانا" ولمـيل الـناس إلى وجـود إحـصائيات تدعم الأقـوال، في دراسة أجريت على 326,306 أستاذ جامعي حصلوا على شهادة الدكتوراة قبل حياهّم العملية: كانت حصيلة الدراسة أن 8.5 في المائـة مـن الـرجال لم يتـزوجوا بعـد، بيـنما 46.4 في المائة من النساء لم يتزوجن بعد(1).

ويـضيف مؤلـف الكـتاب الـذي خـرج بالإحـصائية أن المعادلـة واضحة جدًا في هذا الأمر، وهو أن العلاقة "عكسية" بين الرجل والمرأة

(1) Anthony Walsh "The Science of Love" p.209

في فرصــة الحصول على زوج مع ارتفاع درجة المكانة العلمية والسؤدد الوظيفــي. وفي نفــس الدراسة أن النساء اللائي لم يتزوجن بعد، يعانين اكثر من مشكلة ـ التوحد أو الوحدة ـ من الرجال.

لــذلك فــإن مقولة "وراء كل رجل عظيم امرأة" لم تأت من فراغ، فالمــرأة قــد تكون سببًا في نجاح الرجل، بينما الرجل قد يكون سببًا في جعــل المــرأة تعــيد النظــر في قراراها وطموحاها في سبيل التضحية في مسار حياة الزوجين.

لذلك نجد المرأة التي لا تريد أن تفقد فرصة الزواج تستعد وتتأكد مــن ضمان استقرارها الاجتماعي قبل أن تتسلق سلم النجاح والتميز المحفوف بالمخاطر والتضحيات.

في تحقــيق لأحد الصحف اليومية[1]، استطاع أحد الصحفيين أن يــسبر مكــنون نساء كثيرات لم يحالفهن الحظ في الحصول على زوج أو تكــوين أسرة، في كل كلمة وفي كل حرف نطقت به امرأة، ستجد نبرة حــزن دفــين لإحــساس حــواء الدائم بعدم اكتمال أنوثتها إذا لم تتذوق مودة ورحمة الزواج ويكون لها فرح وفستان وعرس.

ســؤلت ناديــة عن عدد البلاد التي قامت بزيارها قالت: قل لي كم مرة طفت فيها العالم؟!

ثم بــدأت تتحدث بفرحة وانطلاق عن رحلاها كما لو أها سؤلت عــن حبيــبها الأوحد، ونادية فتاة جميلة وخريجة مدارس وكليات "ثنائية اللغــة" ومــن أسرة ثرية ورغم وجود الخدم والحشم في بيت العائلة إلا

(1) جريدة الرياض.

إنها كانت تجيد الأعمال المنزلية من طهي وتنظيف أي أنها في سوق العرائس "عروس لقطة" كما هو دارج في لغة العوام.

ورغم ذلك رفضت كل من تقدموا لخطبتها بحجة انشغالها في العمل وأنها لا تريد أن تظلم زوجها معها فطبيعة عملها تتطلب منها السفر والمبيت خارج المنزل لفترات طويلة، والسفر والطيران أخذ منها كل شيء وأحبت عملها جداً بل كانت تقوم بأعمال زميلاتها الغائبات أيضًا.

وعندما سؤلت: هل أنت نادمة على أنك لم تتزوجي وتنجبي أطفالا ويصبح لك منزل خاص بك؟

أجابت: لم أفكر في الزواج فأنا كل يوم في بلد وكل يوم أعيش وسط عشرات البشر أطفالاً وكبارًا والسفر والطيران كانا سعادتي الوحيدة، عندي شقة خاصة بي مملوءة بالقطع التذكارية التي اشتريتها من كل البلاد التي سافرت إليها وهي تذكرني بالبلاد التي زرتها وأعيش معها اللحظة ـ لحظة شرائي لها ـ وأتذكر كل الأشياء الجميلة أثناء عملي فهي ذكريات كثيرة ولم أندم يوما على شيء.

فالحمد لله أبناء أخواتي وإخوتي وأصدقائي وأقاربي دائماً معي، وبيتي كبير كما ترى يكفي الكل!

لا شك أن آنسة مثل نادية تبدو سعيدة لكنها قد تعاني ألم الوحدة بشدة قبل أن تخلد إلى فراش النوم كل ليلة، فقليل هم من يعرفون معنى الشعور بالوحدة عند اقتراب النوم!

ومنهن من ينحني الجسم لها احترامًا وتقديرًا لاختيارها عدم الزواج لهدف نبيل اختارته لنفسها لم يجبرها أحد عليه فاستحقت بعد ذلك كل التقدير والاحترام.

ماما نجوى: نجوى كانت الابنة الثانية لأسرة تتكون من عشرة أبناء، ثماني بنات وولدان كانت هي أكبرهم، في سنواتها الأولى في الجامعة كانت لها أخت طفلة لا تتعدى الثلاثة شهور.

وكانت نجوى آنذاك مخطوبة لأحد أبناء كبار البلد في مدينتها فهي من عائلة محترمة في البلد وأصحاب أملاك، ولكن تدخل القدر، فتوفيت والدتها فقررت فسخ خطوبتها وأعلنت إضرابها عن الزواج لتتولى مسؤولية تربية أخواتها الصغار.

ورغم أنها كانت فتاة جميلة وأنيقة، خلعت ثوبها القديم (الفساتين والبنطلونات الأنيقة) وقررت ارتداء ملابس الأمهات وتركت كل شيء يشعرها أنها بنت جميلة حتى لا تشغل نفسها بتلك الأشياء واهتمت فقط بأخواتها الصغار وكان الكل يشفق عليها، ولكنها كانت تفعل ذلك بكل حب وسعادة.

وتزوج الأب في شقة أخرى ولم تحزن، بل كانت تعتبر زوجته أختا لها واستطاعت أن تبث الحب والحنان بين أفراد أسرتها فأصبحوا أسرة متماسكة ومتعاونة والكل يخاف على الآخر ويضحي من أجله فكانت مضربًا للأمثال.

ومرت الأيام والسنون، كبر الأطفال وأصبحوا رجالا وسيدات وتزوجوا وأنجبوا أطفالا والجميل والمثير للدهشة أن "ماما نجوى" كما يطلق عليها الصغار والكبار هي التي قامت بتربيتهم في بيت العائلة الكبير أيضًا، فالكل كان يذهب لعمله ويترك أطفاله لماما نجوى، والآن كبر الأحفاد وتزوجوا أيضًا و"ماما نجوى" ما زالت تعطي بكل ما عندها من حب وحنان لكل طفل دون أن تكل أو تمل.

وعندما سؤلت نجوى: ألم تندمي على قرار الاضراب عن الزواج؟

أجابت: لم ولن أندم أبدًا فالحمد لله فأنا اعطيت عشرين ابنا غير أخواتي أمومة كاملة عوضتني عن أمومة حقيقية، والكل يحبني، ويكفي أن أخواتي تنازلن لي عن بعض أملاكهم وكتبنها باسمي وفي كل سنة أظفر بسفر مع واحدة منهن.

ولو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

هكذا النساء وإلا فلا، أعطت الحب فاستحقت الحب، فتات حنان من امرأة كهذه يكفي لاسعاد مائة رجل.

أما عبير فهي طبيبة، بيضاء زهراء فيها بقايا جمال تخطت الخامسة والخمسين من عمرها رفضت الزواج بإرادتها، تضحك الدكتورة: نعم أرفض الزواج وهذا أفضل، فقد تخرجت من كلية الطب بعد دراسة شاقة استمرت سبع سنوات.

وانشغلت بعدها بالماجستير والدكتوراه وفجأة وجدت نفسي في الثلاثين كيف ومتى لا أعرف، تقدم لي الكثيرون، ولكن لم يكن بينهم فارس الأحلام الذي يستحقني، والذي طالما حلمت به ومعه كثيراً.

فامتنعت عن الزواج بإرادتي وبكامل قواي العقلية، ولا يهمني ما يقال من أمثال "ظل رجل ولا ظل حيطة" وغيره من كلام الناس، فلا أستطيع الزواج من أي شخص لا يناسبني اجتماعيًا، وثقافيًا، وعاطفيًا، لكي أتجنب لقب عانس.

فأنا لست عانسًا، لكن ممتنعة عن الزواج وعملي هو كل حياتي.

سيدة أخرى عمرها أربعة وخمسون عاما، مدرسة جميلة، رقيقة وأنيقة ومثقفة، خريجة مدارس لغات تقول نعم لم أتزوج لأنني لم أجد

الـرجل المناسـب، فهـل هـذا تـصرف خطـأ أم صـواب، أعتقد أنه صواب.

هـل أتزوج من أي إنسان وتكون النتيجة حياة زوجية فاشلة وأطفال يدفعون الثمن، هل هذا معقول؟ شباب اليوم أصبح غير قادر على تحمل المسؤولية وغير جاد في مسألة الزواج فهو بالنسبة له لعبة أو تجربة، وليس أسرة وزوجة لها حقوق وحياة مستمرة على الحلوة والمرة.

الـشباب متأثـر للأسـف بكـل مـا يجري حوله من سلبيات، وما يـشاهده في الفـضائيات والإنتـرنت، يـريد زوجـة طبق الأصل للفنانة فلانـة، ويـريد صـورة منها، في شعرها ولون عينيها، هل هذا معقول، لذلك أنا متوقفة عن الزواج بإرادتي ولست نادمة على ذلك.

سـيدة أخـرى في منـصب يحـسدها عليه الكثير في دائرة حكومية وتحمـل شـهادة عالية تقول: أعرف أنني لست جميلة أبدًا وقد وشت لي امـرأة بـذلك، وقـد رأيـت هـذا المعنى في عيني أمي وإخوتي منذ كنت صـغيرة، لكـن مـا ذنبي حتى لا يطرق بابي أحد؟ هذا ما حدث، أتحرق شوقا لأصبح عروسًا فقد يعطيني "الثوب الأبيض" بعض الجمال.

أمي كانت تبكي من أجلي حتى أنها طافت بي على كل من تعرف لتـسويقي بـلا فائدة، كنت أتمزق وأنا أطوف معها لإحساسي أنني عار أو خطأ اجتماعي لابد من علاجه.

لم أصـدق نفـسي عـندما جـاءني شـخص لخطـبتي. كـان عـندي إحـساس أنـه طامـع في المنزل الصغير الذي أعيش فيه وحدي مع أمي حـيث تزوج جميع إخوتي ولم يبق غيري كنت أعرف أنه سيتزوجني من أجل المنزل فقط، وعندما يتم المراد قد يأتي بأخرى لتحيا معي.

كل ذلك لم يهمني فقد وافقت وطارت بي الفرحة، ولم أعرف أن حبي لـه ولهفتي لإرضائه هي السبب في تركه لي، ويبدو أنني تنازلت معـه كثيرًا لكنني كنت أخاف أن أصده حتى لا يتركني، تركني وقال: إن جرأتي أَخَافَتْه، من وقتها لم يطرق بابي أحد وأحجمت عن الزواج تمامًا.

الدكتورة أ. م. مدرسة بكلية في جامعة مرموقة تتمتع بوقار وهيبة، وجمالها متوسط، ولـديها إمكانـيات طيبة للمساهمة في بيت الزوجية، ومـع هـذا لم تتـزوج حتى الآن رغم تجاوزها الخمسين، تقول: حصلت على الماجستير ثم الدكتوراه في تخصص مهم جداً.

والحقـيقة أنـني لم أضرب عن الزواج أو أعامل من تقدموا للزواج بكـبرياء، بل كنت على استعداد لإقامة حياة زوجية حتى أثناء انشغالي بأبحاثي، وكنت أحلم بإنجاب أطفال يلعبون ويلهون أمامي.

لكن معظم الرجال الذين تقدموا للزواج مني كانوا غير مستعدين لمساعدتي على استكمال أبحاثي، بل كانوا سيشكلون عائقاً أمام تقدمي العلمي والدراسي، وقال أحدهم: لن أتزوج ماجستير أو دكتوراه، أريد زوجة تطبخ وتكنس وتنجب وتنتظرني عند عودتي من العمل!

وقـال ثـان: أنا أو الماجستير والدكتوراه وقال ثالث: ليس عندي مانـع مـن أن تـستكملي دراسـاتك وأبحاثـك لكنني لا أملك شقة، وراتـبي ضـئيل، وينبغـي أن تـساعديني علـى بـناء الـشقة وتأثيثها، والمـشاركة بشكل أساسي في الإنفاق على بيت الزوجية، وقد بدا لي أن هـذا الـرجل يسعى لزواج من أجل الزواج، وهدفه الطمع فقط. ولم أتزوج إلى الآن.

العنوسة قد تكون قدرًا، ومن يحدث له ذلك فليتسلَّ، فلله الأمر من قبل ومن بعد، لكن أن تكون العنوسة اختيارا مع سبق الإصرار والترصد فللحديث شجون!

قيل: الحب حلم والزواج حقيقة والسعادة أن تجمع بينهما.

* * *

الحزينات

عـن أخـبار الهـند أن فـتاة صدمت لوفاة خطيبها المفاجئة بعد أن سـقط في بئر قبل موعد زواجهما، فقررت ألا تجعل الموت يقف حائلا دون ارتـباطهما وأصـرت علـى إجـراء مراسم حفل زفاف كامل على جثة خطيبها قبل دقائق من إحراق جثته.

خـرجت الفـتاة المحـزونة لتـرتدي لـباس العـرس لدقائـق ثم قـام الحـضور بعـد ذلـك بحرق جثة الشاب تبعا للتقاليد الهندوسية لتنتهي الطقوس الجنائزية ثم تعود هي لترتدي ملابس الحداد.

كانـت تـرفض الفـتاة أن تـسلم جثة خطيبها قبل أن تتزوجه ولم يوافق والداها على ذلك لكنهم حضروا مراسم الحفل تعاطفا معها!

فقـضيت نحـبك والعـروس حـزينة تــذري مــن الآمــاق دمعــا دامــيا

لم تجــن أزهـــار التهانـــي أولًـــا حتــى جـنت ثمــر الــتعازي ثانــيا

بـل إن العـشق الـشديد والهيام البالغ دفع فتاة فرنسية لتتزوج من خطيـبها المـتوفى الـذي دق قلـبها لـه لأول مـرة بعـد أن كانت ترفض الكـثير، "بـرناديت" الفتاة الفرنسية التقت "الفونسو" الشاب وتبادلت معه الحديث العابر.

ولكـنها مـا كانـت تدري أنه سوف يسيطر على قلبها ومشاعرها وكلمـا مـر الـوقت كانـت تحـزن لأنها على وشك ترك الشاب الوحيد الذي رق قلبها له، قبل مغادرتها المكان الذي التقيا فيه صرحت للشاب

أنها تتمنى أن تلقاه مرة أخرى فوافق على الفور لأنه أيضًا تعلق بها من الوهلة الأولى وتمنى أن يتبادلا الحديث مرة أخرى.

تعددت اللقاءات واعترف كل منهما بانجذابه للآخر وصرح لها "الفونسو" أنه يتمنى أن تصبح له زوجة فدبت السعادة في كل جزء من أجزاء جسمها وبدت وكأنها تطير في سماء الحب بعد أن عاهدها أنه سيبقى لها لا لأحد سواها وألبسها خاتم الخطبة وعمل حفلا عائليًا صغيرًا تمهيدا لحفل الزواج الكبير.

ظلت "برناديت" تستعد لهذا اليوم الذي عاشت تحلم به منذ أن شبت على وجه الأرض وعمل "الفونسو" كل ما في وسعه حتى يجعل حفل الزفاف أسطورة يتناسب مع عميق حبه لـ "برناديت".

اتفق الحبيبان على موعد لزواجهما وكلاهما سعيد بهذا الزواج سعادة غامرة لا تعادلها سعادة، ولشدة ارتباط كل منهما بالآخر تواعدا أن يكون ذهابهما ومجيئهما في كل أمورهما معا لا يفترقان أبدًا، وليلة حفل زواجهما حدث أن كان كلاهما يسبح في سعادة بعد أن أنهيا كل مستلزمات عش الزوجية.

أراد كما يفعل كل ليلة "الفونسو" أن يودع حبيبته عند بيتها على أن يلتقيا في اليوم التالي في حفل زفافهما، وبعد أن طبع على جبينها قبلة الوداع وسار إلى الطريق إذا بسيارة مسرعة تقضي على آمالهما في ثوان معدودة لتترك "الفونسو" جثة هامدة أمام عين "برناديت" الحزينة.

حلت التعاسة محل السعادة ووارت المحزونة خطيبها الثرى وسط أحزان ودموع كل من علم بقصتهما، لمدة عام كامل والحزن يفت فؤاد

"بـرناديت" وفي الذكـرى الـسنوية على وفاته تكتب رسالة إلى الرئيس الفرنـسي "فرانـسوا ميتران" تتوسل إليه فيها أن يوافق على عقد قرانها على خطيبها المتوفى الذي أرادت الاقتران به لتصبح أرملة لخطيبها بدلا من خطيبة سابقة!!

بعد أن علم الرئيس الفرنسي بقصتها وأنها فقدت خطيبها في ليلة الـزفاف أصـدر قـرارا في فبرايـر 1992 بعقـد قران الفرنسية "برناديت هـوزي" علـى خطيـبها الذي فارق الحياة منذ عام كما وافق على إتمام مراسم الزواج أمام السلطات الفرنسية وقررت "برناديت" أن تخلص له ولا تنـساه طالمـا بقـيت على قيد الحياة ولن تتزوج غيره فحبها له يملأ قلبها ويغمره!

فخذ من دموعي ما تشاء ومن دمي   فعـيني كمـا عاهـدتها لك والقلب

* * *

يصف ويعف

الفتى القرشي عمر بن أبي ربيعة كان يعاني من مشكلة الانجذاب الشديد إلى الجنس الآخر، شديد الولع بالنساء، وكان عاشقاً للجمال يتبعه، كان يسميه البعض زعيم الغزليين.

افتتن في الغزل، نشأ هذا الفتى نشأة الترف والجاه، تربى على العز، لم يعش ضيق الحياة، له من الجمال والمال ما فتح له أبواب الملاهي على مصراعيها.

يذكر الرواة أنه قضى شبابه متنقلاً من ملهى إلى ملهى، أو في رحلة صيد، يضيع وقته كي يظفر بفرصة الاجتماع بالنساء عبثا ومجونًا، قضى عمر بن أبي ربيعة قسما كبيرًا من حياته لاهيًا متنقلاً من حبيبة إلى أخرى، ولا أدلّ على ذلك أكثر من شعره:

سلام عليها ما أحبت سلامنا فإن أبت فالسلام على أخرى

كان الغزل كل شيء في حياته، لأجله عاش، ولأجله نظم، وبسببه كان خلوده في دنيا الأدب، لكنه لم يجد لذة الحياة في الملاهي والمتع.

قيل إنه تاب في أواخر حياته: "فتك عمر أربعين سنة ونسك أربعين سنة".

وبما أنه في داخل كل إنسان ضمير حي يعاتبه، لا يعرف الإنسان متى يستيقظ فيه ذلك النداء الجميل ليرشده في البعد عن وثبة الطيش الجامحة، تاب عمر بن أبي ربيعة في آخر حياته.

بعـد رجـوعه عـن حياة اللهو واللعب وقول الشعر بمناسبة وبلا مناسـبة، تشبيبا في كل ماشية وراكبة، أقسم عمر بن أبي ربيعة أن يعتق عبدًا من عبيده كلما قال بيتا من الشعر بعد توبته.

في موطـنه مكـة، بعـد أن كـان يتجـرأ حـتى على التغزل وهو في الطـواف، رأى يـومًا شابًا يكلم فتاة في الطواف، ثم علم أن الفتاة قريبة لـه، وأنهمـا تحابـا، ولكن أبا الفتاة كلفه من المهر ما لا يطيق، فصحب عمر الفتى إلى عمه، وخطب له ابنته، ودفع المهر.

وقـد أثـرت هـذه الحادثـة في تهييج أشواقه فلم يحتمل وقال شعراً مطلعه:

تقـــول وليدتـــي لمـــا رأتـــن طـربت وكـنت قـد أقـصرت حينا

أراك الـيوم قـد أحـدثت عهـدا وأورثـــك الهـــوى داءً دفيـــنا

حـتى بلـغ الأبـيات تـسعة، فبر بنذره، واستدعى تسعة من عبيده وأعتقهم.

وكـان لأسـرة عمـر بن أبي ربيعة الكثير من الرقيق، فأسرة ابن أبي ربـيعة عظـيمة الثراء إلى أبعد ما يمكن لأحد أن يتصور، حتى إن مـن المـسلمين من عَرَضَ على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يـستعين في بعـض غـزواته بأحـباش ابن أبي ربيعة، كان أبوه من وجـوه قـريش وأهـل الـذكاء فـيهم، كان له أخ يدعى الحارث يحب الـسياسة وقـد اسـتعمله عـبدالله ابن الزبير ـ حين كان له الأمر ـ في البصرة.

لكـنه، عمـر بن أبي ربيعة،لم تعرض له السياسة ولم يعرض لها، لا

يـريد إلا الغزل والنساء، لأنه أحب النساء كما يحب أهل السياسة بريق السياسة.

الناظـر في سيرة هذا الرجل، يجد عمر يعيش عيشة الترف، أتيحت لـه أسباب اللهو ووسائله، لكنه مع ذلك مقيد بشرفه ومكانته، فهو يلهـو ولكـن بمقدار، ويتغزل ولكن بمقدار، يصف ويعف، يحوم ولا يرد.

أظـن وفي تخمـيني بـراءة، أن عمـر كـان شـابًا ينفس عما يراه بلا دخـول في دائـرة المحظـور، يحـب ولا يقع في حرام، إذا تشكى أشجى، فالرجل النبيل يرى الخطأ وقد يشتهيه لكنه لا يفعله.

إنـي امـرؤ مولـع بالحـسن أتـبعه   لا حـظ لـي فـيه إلا لـذة النظـر

بـل إن عمـر بـن أبي ربـيعة لم يكـن الشاعر المحزون الذي ما إن تسمع شعره حتى يتفطر قلبك لوعة وأسى، وإنما كان مرحًا ودودًا لا يجعـل مـن الحـب وسـيلة تـؤدي بـه إلى الجنون والانعزال كما فعل المجـنون قـيس بـن الملوح ومن مثله، وهذا فيه ذكاء وتعقل لا يحسنه الكثيرون.

في الغـزل هـناك مدرسـتان؛ أحـدهما: ينظر إلى الانعزال والتوحد والاسـتمتاع بـالألم، بيـنما الأخـرى: تـرى بالمـرح واللعـب والتغـيير والتجديد وكان عمر من المدرسة الثانية.

شـاعر فرنـسا (الفـرد دي موسيه)، على سبيل المثال، كان ينتمي للمدرسة الأولى في فرنسا فهو أحد زعماء الغزل لكن كل أعماله مليئة باليأس والسخط على الحياة والزهد فيها.

تـضاربت الروايات في موت الفتى القرشي ـ عمر بن أبي ربيعة ـ الـذي نحـسب أنـه رجـع إلى رشـده، قـيل إنه غزا في البحر، فأحرقت سـفينته ومات، لكن الرواية القريبة إلى قلبي هي أنه في عهد لهوه ولعبه رأى امرأة شريفة كانت في طوافها حول الكعبة فذكرها تشببا، فعرفت أنـه رآهـا وذكرها في شعره، فجزعت لذلك، فقيل لها: اذكريه لزوجك لـيؤدبه، لكـنها قالـت: كـلا والله ولكن أشكوه الى الله، ثم دعت عليه: "اللهم إن كان نوه باسمي ظالمًا فاجعله طعامًا للريح".

وذكرت الريح لأن الشعر كان:

الـريح تـسحب أذيـالا وتنـشرها	**يـا ليـتني كـنت ممن تسحب الريح**
كـيما تجـر بـنا ذيـلاً فتطـرحنا	**علـى الـتي دونهـا مغـبرة سـوح**[1]
أنّـى بقـربكم أم كـيف لـي بكـم	**هـيهات ذلـك مـا أمـست لنا روح**

قيل: فضرب الدهر من ضربه، ثم إنه غدا يومًا على فرس، فهبت علـى الشجر ريح، فسقط عليه غصن أدماه في جسده، وورم به ومات من ذلك!

بقـي أن أثـبت لـك أن رفيقـنا هـذا الفـتى القرشي، عمر بن أبي ربـيعة، كـان شـريفًا طاهـرًا، فقد ذكر لنا الرواة أنه لما مرض من ورمه مـرض الموت وهو شيخ كبير، جزع أخوه الحارث جزعاً شديدًا عليه، فقـال لـه مطمئنًا: "أحسبك يا أخي إنما تجزع لما تظنه بي، والله ما أعلم أني ركبتُ فاحشة قط، وما كشفتُ ثوبا عن حرام قط!".

---

(1) جمـع سـاحة، وهـي فـناء الـدار. انظـر ديوان عمر بن أبي ربيعة دار الكتاب العربي.

فقــال لــه أخــوه الحــارث: ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك وقد سلّيت عني.

وفي روايــة أخــرى أن غلاما رآه وهو يقول: واشباباه! وكان الغلام في مكــة زائــرًا له وهو في مرض موته، فلما رأى عمر الغلام قال له: يا ابن أخي لعلك سمعت في شعري قالت لي وقلت لها، كل مملوك لي حر إن كنتُ كشفتُ عن فرجٍ حرامٍ قط.

* * *

ومن الحب ما قتل!

ومن الحب ما قتل، وليت العشاق يتعقلون فيما يفعلون، لكنه الحب، تسقط أمامه القوانين والأعراف، جبار في تملكه، ينسى القاضي فيه القوانين، وتحجب النظم فيه عن المحامين، يغفل عنه الحريص، ويعطى لأجله البخيل، ويتحول بسببه الجبان إلى شجاع، ويفوز المغمور بعذره، يجعل من العاشق "مارد مصباح" لشخص المعشوق حتى لو دعاه الأمر لغاية حتفه.

فإن كان محبوبي أراد منيتي   فقد نال مني بالنوى فوق ما نوى

حكى أن أحد الرجال ممن كان كثير الأسفار اجتاز حي بني عذرة، فنزل في بعض بيوته، فرأى فيه جارية قد ألبست من الجمال حلة الكمال، فأعجبه حسنها وكمالها، وفي بعض أيامه وهو يدور في الحي، إذا بشاب حسن الوجه، عليه أثر الوجد، أضعف من الهلال، وانحل من الخلال، وهو يوقد نارًا تحت قدر، ويردد أبياتًا ودموعه تجري على خديه:

فلا عنك لي صبر ولا فيك حيلة   ولا منك لي بد ولا عنك مهرب

ولي ألف باب قد عرفت طريقها   ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

فلو كان لي قلبان عشت بواحد   وأفردت قلبا في هواك يعذب

فسأل عن الشاب وشأنه فقيل له: يهوى الجارية التي نزلت في بيت أهلها وهي محتجبة عنه منذ أعوام، قال: فرجعت إلى البيت وذكرت لها

مـا رأيـت، قالت: ذاك ابن عمي، فقلت لها: يا هذه إن للضيف حرمة، فنـشدتك بـالله إلا متعتـيه بالنظر إليك في يومك هذا، فقالت: صلاح حاله في أن لا يراني.

قـال: فحـسبت أن امتـناعها فتـنة مـنها، فما زلت أقسم حتى أظهـرت القـبول وهي متكرهة، فلما قبلت ذلك مني، قلت: أنجزي الآن وعـدك فـداك أبي وأمـي، فقالـت: تقـدم فـإني ناهضة في أثرك، فأسـرعت نحـو الغلام فقلت أبشر بحضور من تريد فإنها مقبلة نحوك الآن، فبيـنما أنا أتكلم معه إذ خرجت من خبائها مقبلة تجر أذيالها، وقـد أثـارت الـريح غـبار أقـدامها حتى ستر الغبار شخصها فقلت للـشاب: ها هي قد أقبلت، فلما نظر إلى الغبار صعق وخر في النار علـى وجهـه، فمـا أقعدتـه إلا وقد أخذت النار من صدره ووجهه، فـرجعت الجاريـة وهـي تقـول: من لا يطيق غبار نعالنا كيف يطيق مطالعة جمالنا!

قيل: في الحب واحد زائد واحد يساوي واحد!

ومـن الحب ما قتل، وربما وأنت ترى، تجد من تحب يلتقط أنفاسه الأخـيرة أمامـك، وأنـت عاجـز عن نصرته، أو حتى إسكانه، في شرح الحماسـة، أن أحـد أبـناء عـبدالملك كان شديد التعلق بجاريته "حبابة" فقـال يـومًا: يقال إن الدنيا لم تَصْفُ لأحدٍ يوماً قط، فإذا خلوت فاطووا عني الأخبار ودعوني ولذتي بما خلوت له.

ثم خلا "بحبابة" وقال: اسقيني وغنيني، وطاب لهما العيش، فأعطى "حـبابة" حـبة رمـان بـيده ووضعها في فيها فغصت فماتت بين يديه، فجـزع علـيها جـزعًا شـديدًا حـتى كـاد يهلـك ومنع من دفنها حتى

أَرْوَحــت، فاجتمعت مشايخ قريش على لائمته، وقالوا: إنما هي جنازة قــد أروحــت وتــركها عــيب لا يُستقال، فأذن في دفنها، ومشى خلف جنازتها وتولى إلحادها بنفسه ثم قعد على شفير القبر وقال:

كـــــنتِ الـــــسواد لمقلـــــتي فبكـــــى علـــــيك الناظـــــر
مَـــــن شـــــاء بعـــــدك فلـــيمت فعلـــــيك كـــــنتُ أحـــــاذر

ولما انصرف أومأ نحو القبر وقال:

إذا مـا دعوت الصبر بعدك والبكا أجـاب البكا طوعا ولم يجب الصبر
فــإن يــنقطع مــنك الــرجاء فإنــه علـيك سيبقى الحزن ما بقي الدهر

قال الراوي: فلم يبق بعدها إلا خمس عشرة ليلة ومات. ا. هـ
كيف لا، ووالله لا ألومه:

ودعـــتني يـــوم الفِـــراق وقالـــت وهـــي تبكـــي مـــن لـــوعة الافـــتراق
مـا الـذي أنـت صـانع بعد بُعدي قلـت قولـي هـذا لمـن هـو باقـي

ومــن الحب ما قتل، ففي دولة إيران لم يكن عريس إيراني يعلم ما يخفـيه لـه القـدر عـندما لعـق العـسل من إصبع عروسه أثناء مراسم زفافهما حسب العرف السائد المتبع في بلادهما.

سقط العريس صريعا في الحال، إذ إن المسكين ابتلع ظفراً صناعياً كانــت العــروس تضعه في إصبعها، قالت صحيفة إيرانية أوردت الخبر أن العــريس الــبالغ مــن العمر ثماني وعشرون عاماً، توفي على الفور في مديــنة قــزوين الــواقعة شمــال غــرب إيــران، بيــنما نقلت العروس إلى المستشفى بعد فقدانها الوعي من هول الصدمة ويقضي العرف في إيران

بأن يلعق العروسان العسل من أصابع بعضهما البعض عند زواجهما تيمناً بأن يبدأا معا حياة سعيدة!!

إن يــــوم الفــــراق أفظـــع يـــوم   ليـــتني مـــت قـــبل يـــوم الفـــراق

وقـد يـتحول الحـب إلى نحاسة قاتلة، فقد أوصت زوجة أمريكية اسمها "مارى" بدولارين لزوجها بعد موتها يستخدم نصف هذا المبلغ في شراء حبل ليشنق نفسه به، حتى لا يتمتع أحد به بعدها.

ومـن الحـب مـا قـتل، فقـد حفـرت أيـضًا "صـوفيا وولـف" صـورة زوجهـا علـى لـسانها كالوشـم لأنها تسببت في موته بتذمرها المستمر!

شـــكوت لهـــا مـــن لاذع لـــسانها   فـــردت بـــشكوى علـــى الـــشكوى

كما ظهرت سنة 1774م رواية "آلام فارتر" للأديب الألماني وولفانج جـوته، الـتي تحكي قصة الشاب فارتر الذي يعشق فتاة تدعى شارلوت إلى حد العبادة.

غـير أن هـذه الفـتاة مخطـوبة لـشخص آخر، فهي لا تستطيع أنْ تمـنحه غـير مشاعر دفينة، ويرتكبا الإثم والخطيئة ذات يوم، ويقررا ألا يلتقيا أبداً، فيخرج فارتر محطم الفؤاد عازماً على تنفيذ رغبتها في عدم اللقـاء ويقـدم على الانتحار وقد دفعت هذه الرواية عدداً من الشباب إلى الانـتحار في ألمانـيا بعـد قراءتها وقيل أن الرواية منعت من الدخول للنرويج والدانمرك!

مساكين أهل العشق ما كنت أشتري   حـــياة جمـــيع العاشـــقين بـــدرهم

ومـن الطرائف المفجعة ما حكي عن محمد بن عبد الله البغدادي،

قـال: رأيـت بالبـصرة شاباً على سطحٍ مرتفع، وقد أشرف على الناس وهو يقول:

مـن مـات عاشـقًا فلـيمت هكـذا   لا خـــير في عـــشقٍ بــــلا مــــوت

ثم رمى بنفسه إلى الأرض، فحملوه ميتا!!!

* * *

ليلة زفاف مختلفة

في جزيـرة تـسمى غرينلاند، يكون احتفال العرس أشبه بأسلوب إنسان الكهف الأول، إذ إن العريس يذهب إلى بيت عروسه ويجرها من شعر رأسها إلى أن يوصلها مكان العرس.

أمـا في جـزر كـوك، تـذهب العروس إلى زوجها على بساط من الآدمـيين، فحـسب تقاليد تلك الجزر، فإن شباب هذه الجزيرة يقومون بالاسـتلقاء علـى الأرض ووجـوههم إلى أسفل، لكي تدوس العروس علـيهم أثـناء سيرها على ظهورهم، حتى تصل إلى المكان الذي يجلس فيه زوجها.

في المقابـل، قـديما في الصومال، يأتي الزوج المحارب ثم يقوم بضرب عروسه أثناء الاحتفال لكي يجعلها تسلم له منذ البدء وتخضع له وتنفذ كل مطالبه ولكي تعترف بأنه السيد المطاع في البيت!

وفي بـورما يـتم إلقاء العروس أرضًا وذلك أثناء الاحتفال، ثم يأتي رجـل عجـوز ويقـوم بـثقب أُذنيها، فتتألم وتتوجع وتطلق الصرخات المدوّيـة، في تلك اللحظات، لن تجد العروس آذانًا صاغية تشفق عليها لأن الفـرقة الموسيقية تبدأ بالعزف بأصوات صاخبة مع ابتداء العروس بالصراخ لكي لا يسمع أحد صرخات الألم.

وفي جزيـرة جـاوة تصبغ العروس أسنانها باللون الأسود، وتغسل أقدام زوجها أثناء حفل الزواج، وهذا يعتبر دليل منها على استعدادها لخدمة زوجها طيلة حياتها.

وفي قبيلة تدعى نيجريتو في المحيط الهادئ يذهب الخطيبان إلى عمدة القرية، فيمسك العمدة برأسي الزوجين ويضربهما ببعض، وبفعل ذلك يتم الزواج وتعتبر الضربة عقد زواج صحيح!

أما في التقاليد اليهودية فإن الزوجين يقومان بكسر كأسٍ من الزجاج بأرجلهما، ولفتات الزجاج المتناثر مضامين، فالقطع الزجاجية المتناثرة تصور ديمومة العلاقة الزوجية، متى ما تم الزواج فلا رجعة في ذلك، مرد تلك القصة إلى سقوط هيكل القدس المزعوم وأن الفرحة قد تسقط فجأة ولا يمكن استرجاعها.

أما في بعض المناطق التركية، فيوجد عادة غريبة تسمى "الأحذية القديمة"، في مراسم ليلة الزفاف، يذهب العريس إلى بيت العروس ليأخذها معه، لكن قبل أن يدخل البيت الذي تقطنه العروس منتظرة حضوره، يتجمهر على مدخل البيت أقرب الأصدقاء والمعارف ليرشقوه بالأحذية القديمة لحظة دخوله، بعد دخوله بسلام، يسجد شاكرًا لله، ثم يشارك زوجته قطعة مكعبة من السكر، ويتناولون العشاء سويًا في أول ليلة معا!

أما عند بعض الصينيين القدماء، فإنهم يحضرون مجموعة من الأطفال ليناموا على سرير الزوجين قبل ليلة الزفاف كبشير سعد للإخصاب، ولعل هذا السبب في أنهم أكثر سكان العالم!

وعند بعض الألمان، تُعطي العروس "بَوْصلة" صغيرة الحجم إلى العريس كرمز لكي لا يحيد عن الجادة الصحيحة!

وعـند بعض الروس، توجد قطعة سجاد يقف عليها الاثنان لأداء قـسم الـزواج، لكـن قـبل الوقـوف عليها، يجب على الاثنين التسابق للوصـول إلى الـسجادة، ومـن يـصل أولاً، يفتـرض أن يكون العنصر المسيطر في بيت الزوجية!

وعـند أهـل الـيونان قـديما كانـت المـرأة تحتـسب عمرها من يوم زواجها وليس منذ تاريخ الولادة!

* * *

كازانوفا

يـرتبط اســم كازانــوفا مع كل شخص هوايته اللعب على قلوب النـساء وإغـوائهن واسـتغلال رقـتهن، وهـو أيـضاً الشخص الذي لا يكتفـي بامـرأة واحـدة وإنمـا العديد في مغامراته، طبقا لمذكراته "تاريخ حياتي"[1] التي كتبها بخط يده في القرن الثامن عشر وأعطاها لابن أخيه، فـإن الرجل ـ كازانوفا ـ يقول أنه ضاجع أكثر من ألف امرأة في تاريخ حياته!

"جـيكامو كازانـوفا" حـصل على لقبه المشهور كازانوفا من زوج أمه وليس من أبيه الشرعي فقد عاش مع زوج أمه بين خمسة من الأبناء بعـضهم غـير شرعيين (خارج نطاق الزوجية)، كانت ولادته في فينس (البندقية) ـ إيطاليا ـ عام 1725م.

مـن أهـم مـراحل حياة كازانوفا بعد أن قضى فترة يدرس فيها العلـوم متـنقلاً بـين فينس وأماكن متعددة في إيطاليا هي مصاحبته لعـضو في مجلـس الـشيوخ يدعـى"الفـايس" يـبلغ من العمر الستة والـسبعين عامًـا، علمه "الفايس" كيف يتعامل مع الطبقة المخملية والعامـة في المناسـبات والحفلات، كان لهذه المرحلة الجانب الأكبر في غـرس روح الغـواية في كازانـوفا بعـد الاحـتكاك مع النساء بشكل كبير.

---

(1) "Histoire de ma vie" (History of My Life)

بعـد تلك المرحلة اشتغل كازانوفا العربيد في الجيش لفترة وجيزة ثم وجـد أن المجـد في الجيش يحتاج إلى وقت طويل وهو طريق ممل أيضًا فقرر ترك العمل فيه.

بعـد ذلـك اشـتغل كمانـيًّا[1] لحاجـته إلى الـنقود في مسرح سان صـموئيل الـذي هـو ملـك لأبـيه الحقيقـي الـذي يعـتقد أنه "مايكل جـريماني"، وهـو ابـن الواحد والعشرين عامًا استطاع كازانوفا أن ينقذ أحـد النـبلاء مـن القـتل ثم أصـبح رفيقًا لهذا النبيل لفترة طويلة حتى أصبح يعامل كأحد الأثرياء.

خـلال فتـرة حـياته، جال كازانوفا معظم عواصم أوروبا وجرت العادة أن يطرد منها لأسباب أخلاقية وفضائح يرتكبها!

كما هي عادة المنحرفين وأصحاب الغواية، عاش آخر سني عمره عـديم الجدوى بائسًا حزينًا محبطًا لا يحصل على قدر كاف من الاحترام حـتى مـن العبـيد والخـدم، تـوفي كازانـوفا في عام 1785م بعد أن كان يـستمتع بغـواية النـساء ويستجيب لإغوائهن، بل إنه بالغ في الانحراف وجـرب الاستمتاع برجال مثله لمجرد التجربة طبقا لمذكراته[2]، ونتيجة لـذلك، شـكلت الأمـراض التناسـلية في حياة كازانوفا جزءًا كبيرًا من يومياته!

هـذه نبذة عن حياة كازانوفا الرجل الذي يملك القدرة على إغواء الكـثير من النساء لكن يبقي السؤال المحير الذي يتبادر إلى ذهني دائمًا، هل النساء يحببن هذا النوع من الرجال حتى يستجبن له؟!

(1) عازف كمان.

(2) انظر مذكرات كازانوفا "Histoire de ma vie"

قالــت: كان شابا "بصباصًا" من الدرجة الأولى لأنه كان يعاكس كل فتاة تدخل إلى المكان الذي أعمل به، لم أهتم به وإن كان قلبي قد وقــع في قدمــي مــنذ رأيــته أول مــرة، ولم يكــن بينــنا حوار حتى بدأ يتقــرب إلي، وكــنت أرد علــيه بغضب وازدراء وكأنني أكرهه مع أني "أموت فيه"!

وجاهلــة بالحـــب لم تـــدر طعمـــه وقـد تـركتني أعلـم الـناس بالحب

* * *

قسمة ونصيب

كانت من بنات الملوك فتاة تكره الزواج، فاجتمع عندها ثلاث نساء فتذاكرن الزواج وقلن لها: ما يمنعك من الزواج؟

قالت: وهل فيه من الخير لي شيء!

قلن: وهل لذة العيش إلا في التزويج؟

قالت: فلتصف كل واحدة منكن ما عندها فيه من الخير حتى أسمع.

فقالت الأولى: زوجي عوني في الشدائد وهو عائدي دون عائد إن غضبت عطف وإن مرضت لطف.

فقالت الفتاة: نِعْمَ هذا الشيء.

قالت الثانية: زوجي لما عاناني كافٍ ولما أسقمني شافٍ عرقه المسك المداف وعناقه كالخلد ولا يمل على طول العهد.

فقالت لها الفتاة: وهذا خير منه.

وقالت الثالثة: زوجي الشعار حين أبرد وأنيسي حين أفرد وحبيبي حين أصبح وطبيبي حين أمسي.

فاقتنعت بكلامهن وتزوجت.

فقلن لها بعد حين: كيف رأيت الزواج؟

قالت: رأيته أسخى كريم، وأنعم نعيم، وسرور صف، ولذة ليس فيها خلف!

الحصول على زوج أو زوجة أمر معقد لا يفسره إلا المثل المشهور "الـزواج قـسمة ونـصيب"، يتـبع الحـديث الـسابق من وحي التراث الخليجـي أن رجـلاً يدعـى الحاج سالم من سكان البادية كانت له ست من البنات وكان عنده أخ اسمه حمد يملك كثيرًا من الغنم.

وفي كـل موسم عيد يذهب حمد ليبيع من الغنم لكن النحس كان دائمًا حليفه فيرجع خالي اليدين، أى لا يبيع إلا القليل ويرجع بالأغنام الكثيرة التي اصطحبها معه، فمرت السنوات سريعة وبنات الحاج سالم يكـبرن ولم يتزوجن وقد فاتهن قطار الزواج وكلما يرجع للبيت ـ سالم ـ يرى البنات إما نائمات أو يعددن الحصى أو يلعبن.

اشـتد غـضبه نظراً لكونهن عوانس فى البيت لا هَمّ لهن إلا الأكل والـنوم واللعب فقط، وفى يوم من الأيام وهو راجع من صلاته وجدهن يلعـبن فقـال لهـن بلغـة عامية كلاما صار مثلا يروى للأجيال: "قِعْدوا مثل نعجات حمد لا مشيتوا ولا جاكم حد!"

وقـد وجـدت عـزباء فرصـة في اسـتغلال المـثل "الـزواج قـسمة ونـصيب" بعـد أن ملـت الانتظار فتقدمت بنفسها إلى شاب، وقالت: الـزواج قـسمة ونـصيب، أنـا قـسمة وأنـت نـصيب، ما رأيك في أن نتزوج!!

* * *

فن الاعتذار

للاعـتذار لذة تأسر القلب وتحدث أثرًا طيبًا في النفس، خصوصاً إذا كـان الاعـتذار لـشخص يـستحق الاعـتذار ومـن شـخص جدير بالاعـتذار، والاعـتذار فـن لا يتقـنه إلا القلـيل، وللعاشـقين لابد من أخطاء، وهذه الأخطاء ربما وجدت ليأتي الاعتذار بعدها، إذا فهم ذلك، فالاعـتذار عـندما يـأتي في الـوقت المناسـب وفي الظروف المناسبة، فإنه يمحـو لحظـات الهـم والحـزن، ويـداوي جـروحًا لا تندمل، وهو ليس ضعفًا بالتأكيد، ولا يأنف الاعتذار إلا متكبر جبار.

زهـــوا فتجـــنوا، ودنـــوا فملـــوا   دعـــوا فتمـــنعوا ملكـــوا فـــتاهوا

عرضـوا ثـم أعرضـوا واسـتحالوا   ثـم مالـوا، وأنـصفوا ثـم جـاروا

لا تلمهـــم علـــى الـــتجني فلـــو لم   يتجـــــنوا لم يحـــــسن الاعـــــتذار

قـيل: ديـة الـذنب الاعـتذار، والقلـوب بعد الخطأ والاعتذار ربما رجعـت أقـرب وأدنى، صحيح أن ترك الذنب أيسر من الاعتذار، لكن رونـق وتلألـؤ الملامـح إذا عـادت الأمـور إلى مجاريها وتصافت الأفئدة تظهـر واضـحة الجمـال علـى الوجـوه، تحـس بعـدها بنشوة وسرور عميقين.

ثقافـة الاعـتذار تعلم التسامح والعفو الجميل، والاعتذار فن من فـنون الأخـلاق الحمـيدة، وما أجمل أن تسترجع موضعك في قلب من تحب!

وجــــاء لـــسان الاعـــتذار محققًـــا فـوافقه حُسن القـبول من القلب

روي عـن الحـسن بـن علي رضي الله عنهما أنه كان يقول: لو أن أحداً شتمني في أذني هذه، واعتذر إلي في أذني هذه، لقبلت عذره.

والمحـب إذا كان لمحبوبه مكانة عظيمة في نفسه يجلها ويقدرها، فإنه حـتمًا يعفو ويصفح إذا وقع التأسف والاعتذار، ومن قول ابن حزم في هـذا: "ولقـد وطـئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيـبة تعـدل هيـبة محـب لمحبوبه، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء، وتحكم الوزراء، فما رأيت أشد تبجحًا ولا أعظم سرورًا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده، ووثق بميله إليه وصحة مودته له".

في تقـبل الاعتذار أحيانا يعتري المخطئ إذا قُبل منه عذره انشراحٌ وتهلـلٌ بعد ندم حصل، ولقد رأيت من رأيت تزهو خيلاءً وتيهاً حرك مـن سـكونها قـبل أن أُكمل جملتي "اعتذار مقبول يا سيدتي"، اعتذرت بعدما افتعلت ذنبًا صغيرًا أحسب أنها اختلقته وما أجمل غلطات حواء إذا كانت مقصودة وظريفة!

لـئن لم تكـن عيـناك عذرك لم تكن لديـنا بمحمـود ولا ظاهـر العـذر

روي أن يحيى بن خالد البرمكي طلب العباس بن الأحنف الشاعر الأريب يوما فقال له: "إن مارية إحدى جاريات الرشيد هي الغالبة على أمـير المؤمـنين وإنه جرى بينهما عتب، فهي بعزة دالة المعشوق تأبى أن تعـتذر وهـو بعـزة الخلافة وشرف الملك والبيت يأبى ذلك، وقد رمت الأمـر مـن قـبلها فأعـياني وهـو أحرى أن تستفزه الصبابة، فقل شعرًا تسهل به عليه القضية وأعطاه دواة وقرطاساً فنظم العباس:

العاشـــقان كلاهمـــا متغـــضب وكلاهمـــا مـــتوجد متجـــنب
صـــدت مغاضـــبة وصـــد مغاضـــبا وكلاهمـــا مما يعـــالج مـــتعب
راجـع أحبـتك الـذين هجـرتهم إن المتـــيم قلمـــا يتجـــنب
إن التجـــنب إن تطـــاول مـــنكما دب الـــسلو لـــه فعـــز المطلـــب

فدفـع يحـيى الـرقعة إلى الرشيد فقال: والله ما رأيت شعرًا أشبه بما نحـن فـيه مـن هذا الشعر، والله لكأني قصدت بهذا! فقال: والله يا أمير المؤمـنين وأنـت المقـصود بـه، فقـال الرشـيد: يا غلام نعلي فإنني والله أراجعهـا ـ يعـني الجارية ـ على رغم، فنهض وأذهله السرور أن يأمر للعـباس بـشيء، ثم إن ماريـة لمـا علمـت بمجـيء الرشيد إليها تلقته، وقالـت: كيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ فأعطاها الشعر، وقال: هذا الذي جـاء بي إلـيك، قالـت: فمـن قالـه؟ قال العباس بن الأحنف. قالت: فـبكم كوفـئ؟ قـال: ما فعلت به شيئًا! فقالت: والله لا أجلس حتى يكافأ، فأمر له بمال كثير وأمرت هي له بدون ذلك وأمر له يحيى بدون ما أمرت به.

الاعـتذار قـوة ولـيس ضعفًا، لكن أحيانًا لا يوجد مجال للاعتذار مـن فداحـة الموقـف الـذي حـصل بـين المـتحابين ولعدم توفر سبيل للـرجوع، إذا وقـع شـيء مثل ذلك، فالأفضل الانفصال والتعايش مع الوضـع الجديد وإن كان مؤلما، فليس كل اعتذار مقبولًا، فهناك أخطاء لا يغسلها الاعتذار ولا يمحوها الليل والنهار.

مـن فضل الاختلاف بين آدم وحواء، أن آدم كثير الاعتذار وحواء كـثيرة الصفح، قيل: الأصاغر يهفون والأكابر يعفون، وخطأ كل الخطأ

أن يكــرر الشخص اعتذاره، تكرير العذر فيه تذكير بالذنب، ولا يكرر العذر إلا أحمق، والحمقى كتب لهم أن يعشقوا لكن بغباء!

مــــــن الـــــــيوم تعارفــــــنا ونطـــوي مـــا جـــرى مـــنا

فــــــلا كـــــان ولا صـــــــار ولا قلــــــــتم ولا قلـــــــنا

إذا كانــت هناك فرصة للاعتذار حتى ولو كانت ضئيلة بينك وبين مــن تحب، فالأمر يستحق المحاولة، ولا تأخذك العزة بالإثم وتتكبر على الاعـتذار، الحـياة أجمـل مـع الاعـتذار، وسـل المجـربين، العاشق يعذر العاشـق والعـودة محمـودة مـع المعانقـة والاصـطلاح، بعـد ذلك تأتي الطمأنينة والألفة التي تجب كل ما قبلها.

قالــــت ذهـــبت بحجـــتي عـــني بحـــسن الاعـــتذار

يـــا هـــذه أرأيـــت لـــي لاً مـــذ خلقـــت بـــلا نهـــار

شيخٌ مقتع!

عثـرت ماليـزية في الـسابعة والستين من العمر أخيرًا على الزوج المناسب بعد أن رفضت تسعة عروض بالزواج طوال حياها!

جاء الخبر في صحيفة روت أن السيدة "زبيدة" (68 عاما) تزوجت مـن "جعفـر" (78 عاما) في حفلٍ بسيطٍ بأحد المساجد في ولاية تدعى جوهور.

العـروس "زبيدة" رفضت العديد من العرسان طوال حياها لأها لم تجد فيهم الزوج المناسب.

الغـريب في الأمـر أن جعفـر أرمـل ولديـه أربعـة أبـناء وواحـد وعـشرون حفـيدًا واثـنان من أبناء الأحفاد، نجح جعفر في إقناع زبيدة بإهاء حياة العزوبية عندما عرض عليها الزواج.

قالـت زبـيدة عقـب عقـد القـران: "إها إرادة الله... لقد كنت أنا نفسي أعتقد أنني لن أعثر على شريك حياة إلى الأبد" ا. هـ.

أن تغـادر هذه الحياة بلا تجربة زواج حتى لو كانت التجربة فاشلة، فقد فقدت شيئًا لا يستحق أن تتجاهله!

الأُنوثة

المـرأة لهـا أنوثـتها، جمالهـا، عطـرها، أنفاسـها، لمساتها، خطواتها، ملابـسها، ألوانها، صوتها، وما أسوأ المرأة التي لا تريد أن تكون أنثى بما تحملـه الكلمـة مـن معـنى الأنـوثة، جعـل الله جاذبية المرأة في أنوثتها، ورغـبة المـرأة في أن تـصبح مـثل الرجل في كل أمره دائمًا تباعدها عن دائرة الأنوثة التي هي منبع جمالها.

الأنوثة فن لا يجيده الكثير من النساء، الأنثى متى ما جعلت الرجل نـدًا لها لا تراه كشريك إنما خصمًا يجب هزيمته فإنها تتخلى عن أنوثتها بشكل من الأشكال.

والـرجال مـسؤولون أيـضًا عن بعض تصرفات النساء لأن بعض النساء فقدن أنوثتهن لتقصير الرجال ولسان حالهن: "عودوا رجالاً كي نعود نساء!!"

"عفـواً جدَّاتـنا الفُـضليات... لقـد ولـدنا في زمان مختلف... فوجدنا "الحـيطة" فـيه أفـضل من ظل الكثير من الرجال، كانت النساء في الماضي يقلن: (ظل راجل ولا ظل حيطة) لأن ظل الرجل في ذلك الزمان كان واحة أمان تستظل بها المرأة، كان الرجل في ذلك الزمان وطناً.. وانتماءً.. واحتواءً.

فمـاذا عـسانا نقول الآن؟ وما مساحة الظِّل المتبقية من الرجل في هـذا الزمان؟ وهل مازال الرجل ذلك الظل الذي يُظللنا بالرأفة والرحمة والإنـسانية؟ ذلـك الظـل الذي نستظل به من شمس الأيام ونبحث عنه عند اشتداد واشتعال جمر العمر؟

مــاذا عــسانا أن نقول الآن؟ في زمن وجدت فيه المرأة نفسها بلا ظل تــستظل به رغم وجود الرجل في حياتها فتنازلت عن رقتها وخلعت رداء لأُنــوثة مجــبرة وأتقــنت دور الرجل بجدارة، وأصبحت مع مرور الوقت لا تعلم إنْ كانت أُمّاً أم أباً أم أخاً أم أُختاً ذكراً أم أُنثى رجلاً أم امرأة.

المــرأة أصــبحت تعمــل خارج البيت والمرأة تعمل داخل البيت، والمــرأة تــتكفَّل بمــصاريف الأبناء... والمرأة تتكفَّل باحتياجات المنزل... والمــرأة تدفــع فــواتير الهاتــف... والمــرأة تدفــع للخادمة... والمرأة تدفع للسائق... والمرأة تدخل الجمعيات.

فإن كانت تقوم بكل هذه الأدوار فماذا تبقَّى من المرأة لنفسها؟

وماذا تبقَّى من الرجل... للمرأة؟

لقد تحوّلنا مع مرور الوقت إلى رجال

وأصبحت حاجتنا إلى "الحيطة" تزداد!!

فالمرأة المتزوجة هي في حاجة إلى "حيطة"

تستند عليها من عناء العمل

وعناء الأطفال

وعناء الرجل

وعناء حياة زوجية حوّلتها إلى نصف امرأة ونصف رجل

والمرأة غير المتزوجة

في حاجة إلى "حيطة" أيضًا

تــستند علــيها مــن عــناء الــوقت وتستمتع بظلّها بعد أن سرقها الــوقت مــن كــل شــيء حتى نفسها، فتعاستها لا تقلُّ عن تعاسة المرأة

المتـزوجة مـع فارق بسيط بينهما، أن الأُولى تمارس دور الرجل في بيت زوجها والثانية تمارس الدور ذاته في بيت والدها!!

والطفـل الـصغير في حاجـة إلى "حـيطة" ... يلـونّها برسـومه الطفولـية... ويكتب عليها أحلامه... ويرسم عليها وجه فتاة أحلامه... امـرأة قـوية كجدته... صبُورة كأُمّه لا مانع لديها أن تكون رجل البيت وتكتفـي بظـل "الحـيطة"... والطفلـة الـصغيرة في حاجـة إلى "حيطة"...تحجزها من الآن... فذات يوم ستكبر... وستزداد حاجتها إلى "الحـيطة"... لأن أدوارهـا في الحـياة سـتزداد... وإحـساسها بالإرهـاق سـيزداد... فملامـح رجـال الجـيل القـادم مازالـت مجهـولة... والواقع الحالي... لا يُبشّر بالخير... وربما ازداد سعر "الحيطة" ذات جيل!!

لكـن... وبـرغم مرارة الواقع... إلا إنه ما يزال هناك رجال يُعتمد علـيهم... وتـستظل نـساؤهم بظلّهـم وهـؤلاء وإن كانوا قلّة إلا إنه لا يمكننا إنكار وجودهم.. فشكرًا لهم.. فاكس عاجل... اشتقنا إلى أُنوثتنا كثيراً فعودوا رجالاً.. كي نعود نساءً"[1]. ا. هـ

كـان هذا الكلام كلام أنثى يعبر عن رأيها وفكرها، وواقع الحال، إن في هـذا الكلام صحة وهو واقع لا يمكن إنكاره، المسؤولية تقع على الجميع ذكوراً وإناثًا، معًا نبني مجتمعين ومعا نهدم متفرقين.

وهـذا يقـودنا إلى الـبداية، حـين أطلقت الحركاتُ النسائية شعار "المـساواة" مـع الـرجل، فمـاذا كانـت النتـيجة؟ لقد دفعت المرأة ثمن المـساواة مزيدًا من حريتها، وأضحت، بطريقة أخرى، ضحية استغلال

---

(1) منتديات شبكة تذكار.

اجتماعـي ورجولي طاغٍ، إن المساواة بين الرجل والمرأة، من وجهة نظر التحلـيل النفـسي، مفهـومٌ فـيه التـباس لأنه يُلغي التمايز والاختلاف بينهما، ويعطي للرجل القيمة المطلقة.

فمـا علـيها إلا أن "تتـساوى" معـه، وبـذلك تبقى سجينته، فهو صـاحب القـوانين المـصاغة من أجل تحريرها، وهي ضحية من جديد باسـم المـساواة، المـرأة مختلفة عـن الـرجل بيولوجـيًّا ونفـسيًّا؛ وهذا الاخـتلاف لابـدَّ مـن أخـذه بعين الاعتبار، حتى لا تُحوَّل المفاهيم إلى نـتائج تضع المرأة في مزالق جديدة، لا تختلف كثيرًا عن ظلم الماضي إلا في الشكل[1].

فـرويد كتب تسعمائة رسالة لخطيبته خلال فترة خطوبة استمرت أربع سنوات، في تلك الرسائل كشف لها أن مطالبة المرأة بمساواتها بكل شيء مع الرجل سيفقد العالم أفضل منحة حباها الله بها وهي الأنوثة.

* * *

---

(1) رفاه ناشد (محلِّلة نفسية تمارس التحليل النفسي في دمشق في عيادة خاصة).

الحبُ من وجهة نظر أخرى!

قـال لهـا: قـد لا أكـون غنياً... ولا عندي سيارة... ولا فيلّا... ولا مـزرعة... ولا شركة... ولا نقودًا مثل صديقي حسن، ولكني أعشقك وأحبك...

عانقـته، ودمعـت عيـناها بحـزنٍ وتأثرٍ شديدين، وقالت: إن كنت تحبني حقاً فعرفني على حسن!

* * *

الحُب طائر

أخرجي ما لديك

هيا قولي

قد وهبتُ سمعي إليك

قد عرفتُ بعضًا

من حديث ناظريك

وتلعثم بعض من شفتيك

أوما دريتِ

أن صمتي يجيب

ويخفي نحيبا

ويكتم حبًا

يملؤك حتى أخمصيك

لكنه خاف

طول المطاف

وبلوغ الهوى

حتفه بين يديك

يا للهوى

كم قتيل من فعله قد هوى

فانظري ماذا ترين؟

الحب طائر

هيا أطلقيه من راحتيك

* * *

نحن والنساء

آدم، وحـواء أيـضًا، مـتى مـا حـصل هناك التقاء أو اجتماع بين الاثـنين، وخاصة إذا كان اللقاء لأول مرة، تعصف وقتها الأذهان ويبدأ الحديث مع النفس.

هو: "كيف أجذب انتباهها إلي".

هي: "كيف أجذب انتباهه إلي"!

تلـك اللحظـات الـتي يقـضيها آدم في التهندم والتأكد من ترتيب ثـيابه وتـسريح شـعره، الدقائـق المعـدودة التي ينظر فيها الشاب إلى المـرآة لكـي يطلـق العـنان لناظـره ليلقـي نظـرة أخيرة على شكله الخارجـي هـو على الأرجح يتخيل ردة فعل حواء كأنها تراه في تلك اللحظات.

كـذلك حـواء، عندما تقضي الساعات الطوال في وضع المساحيق وأدوات التجمـيل بمخـتلف أنواعها هي بالفعل ترى آدم ينظر إليها في الجهة المقابلة على المرآة، تريده أن يراها برغبة وانجذاب.

الخـيال المـصاحب لتلك اللحظات هو الذي يخلق جموح كثير من الناس إلى التفنن في لفت انتباه الآخر حتى لو دعا ذلك الخروج عن كل ما هو مألوف.

هـذا الـنوع من التفكير عادة ما يكون مع العقل الباطن ولا أحد يـتحدث عـنه، لكنه دائمًا ديدن الاثنين، حتى قيل إن آدم لا يبدع حتى

يكــون هــناك حــواء يـريد أن يستميلها إلى جانبه أو يجعلها تستحسن شخصه!

فـصاحب بـرنامج المـرادفات في اللغة الإنجليزية الذي يوفر لك خدمــة اختيار أو تبديل الكلمة بكلمة أخرى تؤدي نفس المعني عند الكتابة في برنامج مايكروسوفت الشهير، دشن ذلك الشاب عمله في تـصميم ذلـك البرنامج بعد أن تركته حبيبته التي كانت تستهزئ به وتقـول: "إنـه يعـيد علـيّ نفـس الكلمة أكثر من مرة كلما تحدثت معه"!!

وتـشهد بعـض الحقـب التاريخـية عند العرب كيف كانت حواء عنـصرًا محفـزًا لآدم في الحـروب لا يتـشجع إلا إذا رآهـا عـندما كـان الفـارس الـشاعر يـرى معـشوقته "لميس" وهى تنافح بجانبه في احتدام وطيس المعركة:

وبـــــدت لمـــــيس كأنهـــــا بـــــدر الـــــسماء إذا تـــــبدى

وبـــــدت محاســـــنها الـــــتي تخفـــــى وكـــــان الأمـــــر جـــــدا

لمـــــا رأيـــــت نـــــساءنا يفحـــــصن بالمعـــــزاء شـــــدا

نازلـــــت كبـــــشهم ولم أر مـــــن نـــــزال الكـــــبش بـــــدا

وإطـراءات آدم لحـواء كانـت ولا تـزال دائمًـا غذاءً مفيدًا لظهور نجمهـا وتميز شخصيتها، ميل آدم لحواء وحواء لآدم هو ميل طبيعي لا خوف فيه ولا خجل، فهو طبيعة وغريزة في النفس البشرية ومن يدعى غـير ذلـك فليراجـع نفـسه، لكـنه كـأي غريزة إنسانية تحكمه روابط وأحكام تهذبه وتؤدبه.

مـشاهدة نمـاذج الـناس المختلفة وأنواعهم فيمن حولنا، تولد لنا خـبرة ودرايـة في حـسن التعامل مع الجنس الآخر والتأدب في المعاملة معـه، فقـد تـرى الفـتاة المتديـنة الملتـزمة، وقـد ترى الجريئة وقد ترى المنكـسرة، وقـد ترى السافرة، وقد ترى العادية، وترى الشاب الملتزم، وربمـا التائه، وربما الاجتماعي، وترى الطموح، وهناك أنماط عدة نراها في مجتمعاتنا كل يوم، وتلك تولد لديك الخبرة.

آدم يحـب بعقلـه، وحـواء تحب بقلبها، وأصدقها الأول، وأجملها الـثاني، عندما يحدث اللقاء بين آدم وحواء، تبدأ جيوش من المشاعر في الالـتقاء وتفتح جبهة هنا وجبهة هناك، على جميع الأصعدة، في أحسن الحـالات، يتفق الجيشان ويبنيان مملكة للحب تحلو بها الحياة، وفي أسوأ الحالات يظهر التنافر ولا يقبل طرف، بالطرف الآخر.

وهـذا مـا يـسميه علمـاء الـنفس "الكيمياء" بين المحبين، كيمياء الـتجاذب والتنافـر، عـندما يحس آدم وحواء بالميل نحو الآخر بانسيابية واضحة، اندماج عاطفي بين شخصين.

بعـض الدراسـات الغربية ومنها دراسة مشهورة لباحث أمريكي في علم الاجتماع اسمه "وليام روبسون" يقول: "إن كيمياء المخ المسيطرة علـى عملـية الحب تظل تولد شحنات لمدة ثلاث سنوات فقط، يصل الحب بعدها إلى نهاية عمره الافتراضي وهو ثلاث سنوات، يصبح فيها نور الحب خافتا".

ودراسـة كهـذه لا بـد لهـا مـن تعلـيق، وهو أن ما كل ما يأتي به العلمـاء صـحيح أو يـؤخذ به كأمر مسلّم، فمن قيمنا المرتبطة بالحب شـهادة صادقة على علاقة وحب راسخ استمر خمسًا وعشرين سنة، ألا

وهو حب الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لخديجة، حب صادق تام، وغير منقوص.

وفي دراسة أخرى لعالم نفس اجتماعي أيضا اسمه "أنثوني والش" في كتابه (The Science of Love) تقول الدراسة: "... إن الحيوان يمر في وقت معين من الزمن في كل سنة بما يسمى موسم التزاوج، يشعر فيه الحيوان برغبة عارمة للتزاوج وبحميمية مؤقتة، بعد ذلك تنقشع هذه الفترة غير الدائمة متى ما انتهى التزاوج بين الاثنين، لكن على العكس عند بني البشر، فإن الانجذاب والميل نحو الجنس الآخر ميل دائم، طالما أن الإنسان حي يرزق يستنشق الهواء..."

وهذه بشرى سارة إلى كل من يعتقد أنه غير قادر على الحب، وأنه غير مؤهل له، أو أن الوقت قد غلبه، طالما أنك حي تشم الهواء، فمع كل نفس يخرج منك، تمر لفحة حب بأي شكل من أشكاله، بين ركام الأنقاض هناك دائمًا بصيص من الأمل.

هذه النعمة الجميلة التي تفضل الله بها علينا بني البشر، هي النبع الدائم للحب بين آدم وحواء مهما كان العمر، صغارًا كنا أم كبارًا، الميل والانجذاب موجود طالما أن هناك روحًا تتنفس.

سئلت البارونة "بوردت كوتس" وهي في التسعين من عمرها: متى تتوقف المرأة عن الحب؟ فأجابت: "سلوا من هم أكبر مني سناً!؟".

والميل، وتفسيره بين الجنسين من بني البشر له درجات عند الاثنين. فالمرأة خيالها خصب تستطيع أن تجعل من نظرة عابرة قصة حياة كاملة وفي موقف واحد.

فـتاة جامعـية تخرج من امتحان، فرحة مسرورة، كان الامتحان في منتهـى الـسهولة، جعلـت مـن ذلـك الـيوم أروع يـوم في حياها، من الجانـب الآخـر، يخرج شاب وسيم من الفصل الآخر، له رموش حالمة تنتـزع التـنهدات مـن الحجارة، يلبس ثيابًا بصورة مأتمية، يبدو بلحية غـير مهذبـة لكـنه بـشارب منـتظم الأطراف ويكلم نفسه: "يا لله.. لا أملـك حـتى الـوقت الكـافي لأهـذب لحـيتي بـسبب فترة الامتحانات الكئيبة".

تـشاهده الفتاة يمر في نفس الممر، وتقول: "يا لسوء الطالع مع هذه اللحـية غـير المهذبـة"، يرفع الشاب رأسه قليلاً فتقع عيناه على الفتاة فيلقـي علـيها التحـية بأدب ولباقة، ترتعد فرائصها من طريقة التحية المزهـرة والرموش الحالمة، وبصورة مرتدة، أضاءته بضحكتها الشمسية التي انفجرت كألعاب نارية، وذهب كل إلى حال سبيله.

تبدأ حواء تكلم نفسها، لماذا ألقى التحية عليّ أنا بالذات، ما هذا اللطـف البالغ، لا بد وأنه يحبني، أعتقد أنه يريدني له زوجة، يا للطافته، لا بد وأنه شاب متدين وإلا لما حاول أن يطلق تلك اللحية الجميلة التي ظهرت عليه!

نعم لا بد وأنه فعلاً يهتم بي، لقد كان ظريفًا فعلاً، يبدو أنه طالب مجد، يهتم جدًا بمستقبله، سيوفر لي كل ما أحتاجه إذا تم الزواج، لكني فعلاً لا أعرف متى سيتكلم عني أمام والديه، هل سأنتظره طويلا، أتمنى أن يكـون والـداه منفتحين وليسا رجعيين، لكن سأتحملهم من أجله، أعـتقد أنـه هـو الشاب الذي أبحث عنه، ليتنا نتحدث قليلاً عن كيف سـيتم الـزواج وأين سيكون العرس الجميل، لا بد أنه من النوع الذي

لا يحب الكثير من الأطفال، طفلان وبنت جميلة، هذا كل ما أريده منه، الطفـل الأول سأطلق عليه اسم محمد والثاني علي، ثم الصغيرة الجميلة مريم، نعم، هذه التسمية التي أريدها.

يجـب أن يـصبح محمـد طبيـبًا وعلي مهندسًا، أما مريم فأريدها معلمـة مـشهورة تحـب التألـيف وتكـتب الكـتب وتقـيم الندوات المفـيدة، أما هو زوجي العزيز الذي رأيته للتو خارجًا من الامتحان، يجـب أن لا يـتوقف عـن المـديح كلمـا رأى طلـتي الجمـيلة، وكلما تـذوق طبخـي الـشهي، وكعكـاتي اللذيـذة، حتى لو كان جزءٌ منها محروقا!

أريـده أن يطـبع قـبلة على وجهي الجميل وقت دخوله وخروجه مـن بـيت الـزوجية الـذي لن أرضى إلا أن يكون أفضل بيت في الحي الـذي سنسكن فيه، لا يهمني من أين سيأتي هو بالمال، يجب أن يوفر لي كل ما أحتاجه رهن الطلب.

يـا لـسعادتي، سـيتحقق كـل ذلـك بعـد هذا اليوم الجميل الذي خـرجت فيه من هذا الامتحان البسيط، بعد أن صرح لي ذلك الشاب ـ الذي لا أعرف اسمه بعد ـ أنه سيأتي إلى خطبتي قريبًا!

أما الشاب الذي لم يجد وقتًا يسعفه بسبب تلك الفترة العصيبة أن يهـتم بمنظـره الخارجـي، حـال وصوله إلى البيت، دون أن ينبس ببنت شـفة، صرخ صرخة الجائع نحو جهة المطبخ ليحصل على وجبة هنيئة تعوضـه عمـا فقده من طاقة في ذلك اليوم، أكل وجبته، ثم خلد بعدها في نوم عميق ينهي به يومًا شديد التعب!

بـك مـا بـنا، لكـن على مـضضٍ   تـتجلدين ومـا بـنا مـن جلـد

إن "الفستان الأبيض" ومراسم تحضير الزفاف له وقع في قلب حواء يوازي فرحة فتح بلاد الفرس للإسكندر الأكبر.

هكذا الاثنان، وكل له خياله، وشتان بين هذا وذاك، ننسى نحن الرجال دائمًا، وفي أقل الأوقات ملائمة، أن النساء بشكل عام، يفكرن بالمعنى المضمر للحديث أكثر من تفكيرهن بالحديث بحد ذاته.

إذا أنت وقعت على امرأة تبغض رجلاً ما، وتجتهد في الكيد له والنكاية به، وتنفق أوقاتها وأيامها في إيذائه، وتتلذذ بما يصيبه من سوء ويحدث له من مكروه.

فذلك يشير إشارة لا لبس فيها إلى أنها تحبه بشكل من الأشكال، وأنها مستغرقة في هواها له، ولكنه "هوى القلوب" منحرف الاتجاه، يتمثل في حركات وأعمال وتطلعات مؤذية، بدلا من أن يسر الحبيب ويفرحه[1].

رائد الجمال في العلاقة بين آدم وحواء، ذلك الاختلاف في التفكير، والعجيب في ذلك، مع كل ما خرج به الإنسان من كتب، وقصص، وروايات، ومسرحيات، وإلياذات، وأفلام، وقصائد، ومسلسلات، وترانيم، على مر العصور،كل ذلك لم يحصر هذا الاختلاف أو حتى يشخصه.

والأعجب من عجيب، أن هذا الاختلاف يزداد مع الزمن أكثر فأكثر، ويتلون بتباين أوفر!

---

(1) "الحب عند العرب" دراسة أدبية تاريخية إعداد: المكتب العالمي للبحوث.

يا صبية

اسمعي مني
مقطوعة أدبية
لحنتها... من أجلك
بأحرف شعرية
ليست ألفية
ولا نونية
كتبتها هكذا
بوحي وسجية
لا بحر يقيدها
كما ترينها
حرة أبية
حشوتها بمشاعري
تجاهَك أيتها الفتية
يا صبية
تقبلي من قلبي تحية
واقبليها بنفس زكية
يا فتية
وجدت فيك حسن الطوية

وخلالا جميلة

ومناقب خير صفية

وفوق ذلك أنت نقية

يا بهية

يا صاحبة الروح الرضية

هل تقبلي مني؟

هذي الحروف الندية

أم أنت عني غنية؟

هيا قولي

أم أنت عنها غنية؟

* * *

القيسان

"قـيس بن ذريح"، و"قيس بن الملوح" شخصيتان مميزتان مختلفتان وهما من أكثر العشاق شاعرية وألمعهم في عالم الحب، تميزا بالشعر عالي الطبقة في التشبيب والشوق والحنين.

تم الخلـط بيـنهما بشكل ملاحظ في الشعر والرواية وجب التنبيه إلى هذا الخلط بشيء من الإبانة والإيضاح، اللمحة المميزة الأهم بينهما أن "قيس بن ذريح" محبوبته هي "لبنى" وقد تزوجا.

أمـا "قيس بن الملوح" فانه لم يتزوج ومحبوبته "ليلى" وقصته يتفطر لهـا القلـب موجودة موجزة في كتاب "سلوة العاشق[1]". كلاهما كان له "قـصيدة يائـية" شـديدتا التـشابه. فيائـية قـيس بـن الملـوح المشهورة بـ "المؤنسة" مختلفة عن يائية قيس بن ذريح المشهورة بـ "الخالدة" وجب الانتباه إلى الفرق بينهما.

قيس بن ذريح ذكر أنه رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عـنهما، وهـو من بني عامر وكان منزل قومه في ظاهر المدينة، وكان هو وأبوه من حاضرة المدينة.

بدايـة قـصة قـيس بن ذريح بدأت بقوة ضارية كما هي قوة الحب عـندما يقتحم القلوب، بينما هو يمر لبعض حاجته بخيام بني كعب بن خـزاعة عـند خـيمة لـبنى بـنت الحباب الكعبية، استسقى الماء فسقته

(1) انظر كتاب "سلوة العاشق" عايض القحطاني.

وخـرجت إلـيه بـه وكانـت امـرأة مديـدة القامـة شهلاء، حلوة المنظر والكلام، لما رآها وقعت في نفسه ووقع في نفسها مثل ما رأت منه.

قالـت لـه: أتـنزل فتتـبرد عـندنا؟ قال: نعم فنزل بهم، وجاء أبوها فنحـر لـه وأكـرمه، فانـصرف قـيس بن ذريح وفي قلبه من لبنى حر لا يطفـأ، فجعـل يـنطق بالشعر فيها حتى شاع وروي، ثم أتاها يومًا آخر وقـد اشـتد وجده بها فسلم فظهرت له وردت سلامه وتحفت به فشكا إلـيها مـا يجـد بهـا وما يلقى من حبها، وشكت إليه مثل ذلك وأطالت وعرف كل منهما ما له عند صاحبه.

انصرف قيس إلى أبيه وأعلمه بحاله وطلب منه أن يزوجه لكنه أبى ولم تـنفع اسـتعانته بأمـه على أبيه في تلبية طلبه، وكان ذريح كثير المال أحـب ألا يخـرج ابنه إلى غريبة وطمّعه في بنات عمه، استعان قيس بن ذريح بالحسين بن عليّ رضي الله عنهما وذهب معه إلى أبي لبنى وعظم ذلـك علـى أبي لـبنى وقـال: يا ابن رسول الله ما جاء بك ألا بعثت إليّ فأتيـتك! قـال: إن الـذي جـئت فيه يوجب قصدك وقد جئتك خاطبا ابنتك إلى قيس بن ذريح.

لم يكن أبو لبنى ليعصي لابن رسول الله أمرًا لكنه طلب أن يخطبها ذريـح والـد قيس حتى لا يكون الزواج عاراً وسبة لهم، فذهب الحسين رضـي الله عـنه وأقسم على ذريح أن يخطب لبنى لابنه فخطبها وزوجه إياها وزفت إليه.

أقامـت معـه مـدة لا ينكـر أحد من صاحبه شيئًا وكان قيسٌ أبرّ الـناس بأمـه فألهته لبنى عن ذلك قليلاً فوجدت أمه في نفسها، لما رأى تأثـر أمـه بدخـول لـبنى في المعادلـة مـرض مرضًا شديدًا فلما برأ منه

خشيت أمه عليه أن يموت ولم يكن للبنى ولد فألحت عليه بالزواج من بنات عمه لكنه قال: لست متزوجا غيرها أبدًا!

قال له أبوه: فإن في مالي سعة فتسرَّ بالإماء!

قال قيس: ولا أسوؤها بشيء أبدًا والله.

قال أبوه بشدة: فإني أقسم عليك إلا طلقتها.

اشتد الأمر على قيس وعرض على أبيه أن يتزوج هو ليرزق ولدًا غيره يتسلى به، أو يذهب بلبنى ويرحل عن أهله، أو حتى يذهب وحده ويترك لبنى عندهم لأنه كان لا يريد أن يسوءها بشيء!

قال أبوه: لا أرضى أو تطلقها وحلف لا يعيش في سقف واحد معهم حتى يلبي طلبه، وكان يجلس خارج البيت في الشمس يصلي وقيس يذهب ويظلل لأبيه عن الشمس، وأبوه غاضب لا يكلمه ثم يعود إلى لبنى تنتظره في البيت فيتعانقان وتبكي ويبكي، وهي تقول: لا تطع أباك فتهلك وتهلكني!

قيل: إن ذلك كان حاله سنة كاملة، وقيل: أربعين يومًا ثم طلقها إرضاء لأبيه.

لما طلقها؛ لم يلبث حتى استطير عقله ولحقه مثل الجنون وتذكر لبنى وحالها معه، فأسف وجعل يبكي ويتنشج أحر نشيج، أما لبنى فأرسلت إلى أبيها ليحتملها.

أعذب شعره خرج بعد ذلك:

ألا ليت لبنى في خلاء تزورني   فأشكو إليها لوعتي ثم ترجع

فيا مَن لقلب ما يفيق من الهوى   ويا مَن لعين بالصبابة تدمع

بعد حين أراد أبوه أن يزوجه امرأة جميلة يسلو بها عن لبنى، فأقسم عليه أن يسير في أحياء العرب عله أن يقع على امرأة تعجبه، فسار حتى نزل عند أقوام كثيرين، حتى رأى بحي من فزارة جارية حسناء كالبدر ليلة التمام، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: لبنى! فسقط على وجهه مغشيًا عليه حتى نضح على وجهه الماء فأفاق.

طمع أخو الجارية بالمصاهرة وزوجه إياها لكنه ـ قيس بن ذريح ـ لم يدن منها وزهد فيها، لما سمعت بذلك لبنى قالت: إنه لغدار ! لقد كنت أمتنع عن إجابة قومي في التزويج فأنا الآن أجيبهم!

جزع من ذلك قيس جزعًا شديدًا ووقع ما خاف منه فقد تزوجت، أتى إلى محل قومها فوجدهم قد ذهبوا، فكانت النساء تقول له: ما تصنع الآن ها هنا؟ قد نُقلت لبنى إلى زوجها! وهو لا يجيبهم يمرغ خده في موضعها ويقول أجمل ما قيل في شعر الحب:

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

يتيم جفاه الأقربون فجسمه نحيل وعهد الوالدين قديم

وهذان البيتان ينسبان لقيس بن الملوح بصيغة أخرى أيضا.

أراد بعد ذلك أن يخرج عن المألوف فحاول التقرب إليها وهي متزوجة فأهدر الخليفة دمه ونهره أبوه وعاتبه وتجهمه، وله قصة طويلة مع زوج لبنى مفادها أنهما تبايعا ـ وقع بينهما بيع وشراء ـ وهما لا يعرفان بعضهما البعض.

يذكر أنه رآها مرة ورأته فبكيا حتى كادا يتلفان!

اخـتلف الـرواة في آخـر أمـر قيس بن ذريح ولبنى لكنهم اتفقوا على أنهما ماتا على افتراقهما ولم يكن بين موتهما الكثير من الوقت.

كلمـا قـرأت وتتبعت سيرة هذين المجنونين قيس بن الملوح وقيس بـن ذريـح في الكـتب تعتـريني نـوبات حادة من الجنون المؤقت،لم أجد تفـسير لهـذه الحالة الغريبة حتى قرأت في كتب علم النفس أن هناك ما يـسمى بـ "الجنون الثنائي"[1] وهو يحدث نتيجة انتقال الأفكار الهذائية (الغـريبة) بـين شخـصين وثيقـي الارتباط، من شخص يعاني من هذه الأفكار إلى آخر.

وهي حالة نادرة تحدث في أكثر الأحيان لشخصين وربما لأكثر من شخصين!

* * *

(1) يوميات طبيب نفساني د. حسين هاشمي ص 92، ط 1.

المجانين

قولي أحبك

إن كنت من الصادقين

وتلفظي بها

بجنون العاشقين

أظهري لي

بعض البراهين

كي يطمئن قلبي

إن كنت لا تمانعين

شيدي لي في الحب صرحا

فوق صرح العاشقين

وتغني في غرامي

وتحدي الناظمين

اشرحي لي

ماذا نعيش؟

هل نحن حقا

في عداد المجانين

أنت تعلمين

أني أحبك

قلبي يرددها

وأنت لا تسمعين

كلنا سواء

اصبحنا في الحب غارقين

هيا قولي أحبك

لم أعد من الصابرين!

❋ ❋ ❋

أروع من وصف

قَلِّب في دواوين العشاق ومؤلفاتهم فإنك لن تجد شخصًا يستطيع طرح مشكلته ويصف حاله كمجنون ليلى قيس بن الملوح، لهذا الرجل وصف لمشاهد يمر بها، تعتريه في هيمانه، يصعب على شخص عادي أن يتخيل كيف لبشر أن يصف مشهدا كما يفعل ابن الملوح!

بلا مبالغة، هذا الرجل مدهش، انظر إلى المشهد وعش اللقطة المؤثرة التي يصفها لك المجنون وكيف أن الدموع في عينيه صنعت أمامه زجاجة يرى من خلفها دار ليلى وكيف أن سبب هذه الدموع يعود إلى ماء الصبابة يخرج من جوفه، وتمعن كيف يصف أنه لا يتمكن من مشاهدة الديار بوضوح حتى تجف وتنحسر الدموع من على سطح عينيه.

نظرت كأني من وراء زجاجة — إلى الدار من ماء الصبابة أنظر

فعيناي طورا تغرقان من البكا — فأعشى وطورا يحسران فأبصر

يبدع أيضا في مقام آخر في وصف ما يشعر به قلبه عند ذكر ليلى، وأن القلب تحت رحمة مخالب طائر مفترس ذو مخالب يشد بها:

وحق الهوى أني أحس من الهوى — على كبدي نارا وفي أعظمي رضّا

كأن فؤادي في مخالب طائر — إذا ذَكَرَتْها النفس شدت به قبضا

بل إنه أتى بما يعجز المرء عن استيعابه عندما سئل عن سبب تكرار النظر إلى السماء، فقال معللاً:

أقلـــب طــرفي في الـــسماء لعلـــه يوافــق طــرفي طــرفها حــين تنظــر

ومــن بليغ الوصف قول الشاب الظريف التلمساني عندما وصف حبة الخال تزيّن من يحب:

وبـــين الخـــد والـــشفتين خـــال كزنجـــي أتـــى روضـــا صـــباحا

تحـــير في الـــرياض فلـــيس يـــدري أيجـــني الـــورد أم يجـــني الأقاحـــا[1]

ولــه مــن طريف الوصف وظريفه تشبيهه لحَب الشباب الذي لاح في خد محبوبته بزر الورد:

قالـــــوا: حبيـــــبك فـــــيه حـــــب يلـــــوح بخـــــد

فقلـــــت ماهـــــو حـــــب لكـــــــــــــنه زر وردِ

وله في وصف ما في أحشائه وكأنه قد ألقى نظرة عليها:

لــو اطلعــت علــى قلــبي وجدت به من فعل عينيك جرحا ليس يندملُ

وهاهــو ابن الفارض يترك لنا من بديع الوصف ما ينفرج لسماعه الهم مثل:

ولـــولا زفـــيري أغـــرقتني أدمعـــي ولـــولا دموعـــي أحـــرقتني زفرتـــي

لا يضاهي هؤلاء الشعراء في حسن التشبيه والوصف لحال الزمان والمكان في معية المحبوب إلا أبيات لشعراء ليسوا بمشهورين مثل ناصح الدين الأرجاني الذي تفنن وأبدع في قوله:

كـــنا جمـــيعا والدهـــر يجمعـــنا مـــثل حـــروف الجمـــيع ملتـــصقة

---

(1) جمع الأقحوان وهو نبات ربيعي له لون ابيض.

فالــــيوم جـــاء الـــوداع يجعلـــنا   مـــثل حـــروف الـــوداع مفترقـــة

ومـن غـير المشاهير ممن لم يُذكر اسمه قول أحدهم في كتاب "تزيين الأسواق في أخبار العشاق":

لـــــي في محبـــته شـــهود أربـــع   وشـــهود كـــل قـــضية اثـــنان

خفقـان قلـبي وارتعـاد جوارحـي   ونحـول جـسمي وانعقـاد لـساني

بـل قد تفوق على كل من سبق من الواصفين والعاشقين المتألمين عـبد الـرحمن الموصـلي في وصـفه، لكن هذه المرة ليس في عشيقة ولا حبيـبة وإنمـا في خير البشر وخير من وطئت قدمه الأرض محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

وأحـسن مـنك لم تـر قـط عـيني   وأجمـــل مـــنك لم تلـــد النـــساء

خلقــت مــبرأ مــن كــل عــيب   كأنـــك خلقـــت كمـــا تـــشاء

يجاريهم في وصفهم الضرير أشعر المولدين على الإطلاق بشار بن برد في:

بكـيت مـن الهـوى وهـواك طفـل   فـويلك ثـم ويلـك حـين شـبّا

وقـد تغـرق الدمـوع كـل أجـزاء الجـسم، فيـزداد بكاء العاشق ويتواصـل حـتى يصاب بالعمى فيبكي بعضه على بعضه كما وصف ابن زهر الحفيد:

عـشيت عيـناي مـن طـول الـبكا   وبكـى بعـضي علـى بعـضي معي

* * *

متى تتزوج؟

حكـي أن رجـلاً أقـسم ألا يتزوج حتى يشاور مائة إنسان، وذلك نظـرًا لمـا قاسـاه مـن النـساء، فاستـشار تسعة وتسعين، وبقي واحد، فخـرج يـسأل مـن لقـيه، وإذا بمجـنون قد اتخذ قلادة من عظم وسوّد وجهه، وركب قصبة يجعلها فرسا له.

فـسلم علـيه وقـال لـه: أريـد أن أسـألك عـن مـسألة أرجـوك الجـواب عـنها، فقـال له المجنون: سل ما يعنيك وإياك أن تتعرض ما لا يعنيك.

قال له: إني رجل لقيت من النساء بلاء عظيما، وآليت على نفسي ألا أتزوج حتى أستشير مائة نفس، وأنت تمام المائة فماذا تقول؟

قـال المجـنون: اعلم أن النساء ثلاث، واحدة لك، وواحدة عليك، وواحدة لا لك ولا عليك.

أمـا الـتي لك فهي: شابة جميلة لطيفة لم يعرفها الرجال قبلك، إذا رأت خيرًا حمدت، وإذا رأت شرًا سترت.

وأمـا الـتي علـيك، فامـرأة لهـا ولـد من غيرك، فهي تنهب مالك وتعطي ولدها، ولا تشكرك مهما عملت.

وأمـا الـتي لا لـك ولا علـيك، فهـي امرأة قد تزوجت غيرك من قـبلك، فـإن رأت خـيراً قالـت هذا ما نحب، وإن رأت شرًا حنت إلى زوجها الأول.

وهـذه أحوال النساء شرحتها لك فاعلم، وإن شئت تتزوج فانتق من خيرهن وإلا فلا!

قال الرجل: ناشدتك الله مَن أنت؟

قال المجنون: ألم أشترط عليك ألا تسأل عما لا يعنيك؟!

مـن أخبار الإغريق أن رجلا سأل أفلاطون أن أشِر عليَّ أتزوج أم لا، فقال له: أيهما فعلته يا بني ندمت عليه!

* * *

نهايةٌ حزينةٌ

حكـي عن الصولي عن من أخبره قال: خرجنا للحج فعرجنا عن الطـريق للـصلاة، فجاءنا غلام فقال: هل أحد منكم من أهل البصرة؟ فقلـنا كلـنا مـن أهـل البـصرة، فقـال: إن مـولاي مـنها وهو مريض يدعـوكم، قـال فقمـنا إليه فإذا هو نازل على عين ماء، فلما أحس بنا المريض مولى الغلام رفع رأسه وهو لا يكاد يرفعه ضعفة وأنشأ يقول:

يـا بعـيد الـدار عـن وطـنه   مفـردا يبكـي علـى شـجنه
كلمـا جـد الـرحيل بـه   زادت الأسـقام في بدنـه

ثم أغمـي علـيه طـويلاً فجاء طائر فوقع على شجرة كان المريض مستظلاً بها وجعل يسمع التغريد ثم استيقظ وأنشد:

ولقـد زاد الفـؤاد شـجا   طائـر يبكـي علـى فنـنه
شـفه مـا شـفني فبكـى   كلـنا يبكـي علـى سـكنه

ثم تـنفس الـصعداء ففاضـت روحـه، قال فغسلناه وكفناه ودفناه وسألنا الغلام عنه فقال: هذا العباس بن الأحنف، وكانت وفاته في سنة ثـلاث وتـسعين ومائـة، وكـان لطـيف الطـبع، خفـيف الروح، رقيق الحاشـية، حـسن الـشمائل، جميل المنظر، عذب الألفاظ، كثير النوادر، ومن شعره:

وأبكـي لنفـسي رحمـة مـن عـتابها   ويبكـي مـن الهجـران بعـضي على

العباس بن الأحنف من شعراء قلة تميزوا بالغزل فقط مثل المجنون قيس بن الملوح وغيرهما ممن كانوا لا يمدحون ولا يهجون ولا يتكسبون بل التزموا فنًا واحدًا وأبدعوا فيه، وهو الغزل.

بشار بن برد قال فيه كلامًا جميلاً "ما زال غلام من بني حنيفة يدخل نفسه فينا ويخرجها" يعني العباس بن الأحنف بعد أن سمع:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

واستنهضوني فلما قمت منتصبا بثقل ما حمّلوا من ودهم قعدوا

لأخرجن من الدنيا وحبهم بين الجوانح لم يشعر به أحدُ

وممن كتبوا عنه أيضًا أحمد بن إبراهيم لما قال: أتاني أعرابي فصيح ظريف فجعلت أكتب عنه أشياءً حسانًا، ثم قال: أنشدني لأصحابكم الحضريين، فأنشدته للعباس بن الأحنف فقال: "هذا عندك وأنت تكتب عني! لا أنشدك حرفًا بعد هذا".

ويروى أن جماعة من الشعراء كانوا في دار أم جعفر فخرجت جارية وكمها مملوء دراهم، فقالت: أيكم القائل:

من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرأيت عينا للبكاء تعار؟

فأشار الجالسون إلى العباس بن الأحنف فنثرت الدراهم في حجره فنثرها لا يريدها فلقطها الفراشون.

وجاء في كتاب الأغاني أن العباس بن الأحنف كان من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء، وكان غزِلا ولم يكن فاسقًا ولم يكن هجّاء ولا مدّاحًا.

* * *

لابلاس

(بـير لابلاس) عالم رياضيات وفلكي مشهور، له باع طويل في بناء كـل مـا هو متعلق بالعلم الحديث الآن، على فراش الموت، كان حوله الكـثير من رفاقه، علماء وطلبة، من يواسيه ويذكره إنجازاته وكتبه التي سوف يتركها حتى لا يجزع من الموت.

لم يكـن لابـلاس في ذلـك الـوقت يفكـر بذلك أبدًا، سأله أقرب شخص إليه عن الشيء الذي كان يتمنى أن يراه في حياته وينعم برؤيته، قال لابلاس بصوت المتحسر الحزين: "إنه الحب".

لم يـذق لابلاس معنى الحياة وحلاوتها بكل إنجازاته الرائعة لأنه فقد شيئاً كبيرًا مكملاً لحياة ذات معنى، ووجود له مضمون.

* * *

طاووس أعزب

في صحيفة بريطانية أن طاووسًا ولهان يلقب بـ "Mr. B" السيد "بي"، هـذا الطاووس يمضي ثماني عشرة ساعة يوميًا وهو يتمايل وينفش ريشه أمام محطة وقود في محاولة لإغواء إحدى مضخات الوقود!

خـلال ثلاثـة أشـهر سـنويًا ـ موسـم التزاوج ـ يقدم هذا الطائر استعراضاً غراميًا شغوفا بجانب محطة وقود تقع جنوب غرب إنجلترا في محاولة يائسة لاستمالة "قلب" إحدى المضخات.

لكـن بعـد ثلاث سنوات من الزيارات "المشبوهة" إلى المحطة لفت تهـريج الطاووس العاشق انتباه السلطات المحلية التي تسعى إلى الإمساك به ووضع حد لاستعراضه!

وجـد خـبراء الطيور أن ما يجذب الطاووس للمضخة هو صوت الطقطقـة الـناجم عـنها والـذي يـشبه صـوت أنثى الطاووس، تروي صاحبة الطاووس "شيرلي هورسمان" أنه عند حلول فصل الربيع يصبح لديه ريش جديد وتكثر حركته ثم يبدأ بالبحث عن الحب!

أصْـــبحَ في هـــم وفي كـــرب   متـــيما مـــستلب القلـــب
أورثـــه الحـــب جـــوى داخـــلاً   يستنـــصر الله علـــى الحـــب

الطـاووس العاشـق يـصبح متـيما حين يسمع طقطقة مضخات الوقـود الـتي تـشبه صوت أنثى الطاووس حتى يكاد يبلغ النشوة، ومن الصعب حقًا بالنسبة له أن يستمع إلى صوت كل المضخات التي ترسل

إلــيه الإشــارات على مدى النهار من دون أن يتمكن من التخفيف من كبته.

الطريف في الأمر أن شقيقي "Mr. B" مجنونان أيضًا مثله حين يتعلق الأمر بالحب، فالأول مغرم بهر ـ قط ـ، في حين أن الآخر يعشق مصباحًا في إحدى الحدائق!

يـبدو أن الحــب سمــة عائلــية جينية متأصلة في أقرباء الطاووس السيد "بي"!

* * *

فتاةٌ عاريةٌ!

في فرنسا طلب من مجموعة فنانين رسم موديل نسائي عار وكان بين الفنانين فتى شريف، بينما كان الجميع منهمكين في رسم ذلك الجسد العاري من جميع زواياه المختلفة، رفض الفتى أن يصب انتباهه سوى لوجه الفتاة العارية ليرسمه هو فقط بكامل روعته وجماله.

بعد أن ارتدت الفتاة العارية ثيابها ثم قامت بجولة لترى كيف رسمها كل واحد منهم، انتبهت إلى لوحة الفتى النبيل لترى وجهها فقط ثم قالت بتغطرس وكأنها رأت في ذلك إهانة لأنوثتها "أهذا كل ما ألهمتك إياه؟"

قال الفتى بشموخ: "معذرة سيدتي لكن فرشاتي تشبهني لا ترضى أن تتقاسم مع الآخرين جسد امرأة عارية!"

وصف روبرت هنري النمو البشري من وجهة النظر الفنية فقال في كتابه "روح الفن": إذا كان الفنان حياً يقظاً في إنسانيته، فإنه يصبح مثيرًا لاهتمام الآخرين، إنه يفتح طرقًا لفهم أفضل، أي فهم نفسه وفهم الآخرين، وبينما يحاول غير الفنانين طيّ الكتاب، فإنه يفتحه، ويظهر أنه ما زال في الإمكان وجود المزيد من الصفحات.

* * *

كلية الحُب والدراسات العاطفية

هــذه نــبوءة قــد أتركها للأجيال التي ستأتي من بعدنا، النبوءة التي أتوقــع أن تحــدث هــي وجــود كلــيات في المــستقبل للحــب في معظم الجامعــات، ســتهتم هذه الكليات بموضوع الحب من منطلقات علمية وأدبــية وســتدرس فــيها المواد الاجتماعية التي تهتم بالعلاقات العاطفية وكــل مــا يــرتبط بالحــب، ســتتكفل طــبقًا لتخــيلاتي كل كلية للحب والدراســات العاطفــية في بحــث وتجمــيع النظــريات الخاصــة بالحــب وستفسر الاختلاف الثقافي في النظرة إلى عاطفة الحب.

سيتــضح بعــد ذلــك مفهــوم الحب عند اليابانيين وكيف هو عند دول شــرق آســيا وكــيف يراه سكان جزر القمر والأمريكيّتين وأوروبا وكيف ينظر إليه بدو شبه الجزيرة العربية!

وســألقي بنظرة خاطفة بخيالي إلى المستقبل وأتنبأ أنه قد يأتي وقت تحــسب فــيه شــدة الحب باللوغاريتمات والتكامل والاشتقاق بمساعدة الآلة الحاسبة والكمبيوتر.

* * *

مجنون ذكي

في الكـتب أن مجـنونا مـر بجماعـة من الصبيان، وهو راكب على قـصبة، فقـال: مَـن كـان عاشـقًا مـنكم فلـيقف في الميمنة، ومن كان معشوقًا فليقف في الميسرة، ووقف هو في وسطهم!

* * *

مشاهير العشاق

معظم العرب قد عشقوا بصورة أو بأخرى والظاهر أن العشق والصبوة والغزل سمة من سماقم متأصلة فيهم، ومن أشهر من عشق قيس مجنون بني عامر عشق ليلى، وقيس بن ذريح عشق لبنى، وكُثير عشق عزة، وجميل بن معمر عشق بثينة، والمؤمل عشق الذَّلفاء، ومرقش عشق أسماء، ومرقش الأصغر عشق فاطمة بنت المنذر، وعروة بن حزام عشق عفراء، وعمرو بن عجلان عشق هندًا، والمهذب عشق لذة، وذو الرمة عشق مية، وقابوس عشق منية، وحاتم الطائي عشق ماوية، ووضاح اليمن عشق أم البنين، والغمر بن ضرار عشق جُمل، وبدر عشق نعم، وبشر عشق هندًا، وعمرو عشق دعدًا، وعمر بن أبي ربيعة عشق الثريا، والأحوص عشق سلامة، وأسعد بن عمرو عشق ليلى بنت صيفي، ونصيب عشق زينب، وسحيم عبد بني الحسحاس عشق عميرة، ومالك عشق ظريفة، وعبيد الله بن قيس عشق كثيرة، وأبو العتاهية عشق عتبة، والعباس بن الأحنف عشق فوز.

هؤلاء قليل من كثير ممن عشق، ولكل واحد منهم سبب في حبه، وحديث في عشقه، لكنه يطول شرحه، ويكثر وصفه.

لا أترحم على مثل هؤلاء إذا لم يبلغوا ما أرادوا، بقدر ترحمي على اثنين تحابا وكتما ما بهما وماتا على ذلك ولم يعرف بخبرهما إلا الله!

فهل تسمع مني ذلك يا من أجهز بنظرة عليّ صغيرا ثم تركني بجرّها أكتوي:

يـــا قاتلـــي بـــاللحظ أول مـــرة   أجهـــز بثانـــية علـــى المقـــتول

إن مـن يكـتم حبه ويخرج من هذا العالم كما دخل فيه، بلا شهرة ولا سمعة، بلا ذكر ولا صيت، بحب صادق ونية صافية، هو من يستحق أن يخلّـد اسمـه في آثـار العاشقين، لكن الشهرة والكتمان متناقضتان لا تجتمعان!

سـألقى الله والـنفس مـني لم تـبح   بـــسرك والمـــستخبرون كـــثيرُ

* * *

مشهدٌ

لَـوَّح لها بيده اليمنى ببطء فيه خوف من ردة فعل غير مرغوب بها قـد يحـدث مـن جهـتها، تمـيل كف يده يمنة ويسرة كبندول لا يتوقف ينتظـر نـتاج جـرأته علـى الـتلويح لفـتاة عرفها للتو، اصطنعت عدم الانتبـاه فانتظـرت قلـيلاً ثم نظـرت بطـرف عينها جهته، لا زال يلقي التحية تجاهها بحماسة ممزوجة بوجل.

اخـتلجت بعـد أن أيقنت أنه يحاول استعطافها كي تبادله التحية، كـان علـيها الـرد لـوداعة الابتـسامة الـبريئة الـتي صاحبت إيماءة يده، ابتـسمت ابتـسامة توحـي بقـبولها لتحيـته الـرقيقة الـتي تعرف جيداً مغـزاها، لَوَّحت بيدها له بغنج مصطنع ترد له التحية،لم تستطع المرور من غير أن تسأل عن سبب اهتمامه بها فأقبلت متسائلة "هل أعرفك؟" أجابهـا الـشاب بتلقائـية مـن غير تردد "اعذريني على التطفل لكنني لم أستطع المقاومة"!!

أشرقت له بنظرة كلها شكر وامتنان وذهبت كمن فاز بجائزة نوبل للتو!

* * *

أيهما تختار ؟

قرأت في كتاب الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي أن رجلاً قرأ في صحيفة أنه من أراد شيئًا وسعى في طلبه ناله أو شيئًا منه، فقال في نفسه: أريد أن أتزوج فلانة ـ يعني ملكة كانت في زمانه ـ وأخذ في طلب ذلك.

فتوجه إلى بلادها وأتى قصرها، ورأى الحاشية المحيطة في بابها، وكان يأتي الباب في كل يوم فيجلس في فنائه، وصار بينه وبين الحاشية بعض الأنس لكثرة تردداه، وكان يحدثهم ويحدثونه وربما سألوه عن حاجة إن كانت له فلا يجيبهم بشيء، إلا أنه بعد حين قال: لي حاجة إلى الملكة، فقالوا له: أخبرنا بها فإن وراءنا خدمًا ومن بعدهم جواري ووصائف بحضرتها، ومن قبلهن تنتهي الأخبار إليها، فقال لا أذكر حاجتي إلا لها، فأمسكوا عنه.

وكانت الملكة تشرف من بعض مستشرفاتها على فناء قصرها، وترى من يحضر ببابها، فسألت بعد سنة عن مصير ذلك الرجل الذي كان في كل يوم يأتي أن انظروا ما شأنه، فإن كان مظلوماً نصرناه، وإن كان محتاجًا أعطيناه، وإن طلب عملاً يصلح لمثله وليناه.

فأرسلوا إليه وجيء به إليها فسألته عن حاجته، فقال: لا أذكرها وأحد يسمع ما أذكره، فأمرت جواريها بالتباعد، ثم قالت له: قل، فقال: قصدت الملكة خاطبا لها، أتزوجني نفسها؟!

قالت: إنك لست بملك ولا من ولد الملوك، ومتى تزوجتك سقطت منزلتي، وزال ملكي، ولكن ما الذي جرأك على أن خاطبتني بهذا؟ فأخبرها بما خطر له حين قرأ الصحيفة!

فقالت له: فإنني أرى أن تطلب الحكمة، وتتعلم العلم حتى تصير رأسًا فيه، وتشتهر في الناس منزلتك منه، فإن منزلة العلم أشرف من منزلة الملك، فإذا صرت فردًا في الحكمة، حَسُن منك أن تخطبني وحَسُن بي أن أتزوجك، وأن أجمع أهل مملكتي فأقول لهم: قد طالت أيام ملكي وليس في أهل بيتي من يقوم به بعدي، وقد رأيت أن أتزوج إلى هذا وأرجع إلى رأيه في حياتي لفضل علمه وظهور حكمته ويقوم مقامي بعد وفاتي، فلا ينكر ذلك أحد من رعيتي.

فاذهب ففي هذه المدينة دار يجتمع فيها أهل الحكمة ورؤساء الفلاسفة، ويجتمع الناس إليهم للقراءة عليهم والتعلم منهم، فاجتهد في العلم واقطع ليلك ونهارك باقتباسه، فإذا بلغت منه رتبة عالية فحينئذ تنال ما أنت راغب فيه من جهتي.

ففعل ذلك وصار إلى الدار وأقبل على التعلم، وكان ذا ذكاء وفطنة، وكان يأخذ في المدة اليسيرة ما يأخذه غيره في المدة الطويلة، إلى أن لحق بمن هنالك من متقدمي الحكماء، ثم تقدمهم إلى أن صار فردًا فيهم، واشتهر في الناس فضله وعظموه لسعة علمه وظهور حكمته وصار مقصوداً للاستفادة منه.

فخطر ببال الملكة ذكره، فسألت عنه فأخبروها بفضله وما انتهى إليه أمره، فأمرت باستدعائه فحضر، فقالت له: قد بلغني ما أصبته من

الحكمـة، فهـل لـك فـيما كـنت سألتنيه؟ فقال: لا حاجة لي في ذلك، فقالت: ولم، وقد كنت حريصًا عليه؟

فقـال: رغبت في هذا وأنا أرى أنه أفضل ما يبلغه الإنسان في دنياه فلمـا نلـت مـا نلته من الحكمة، وعلمت ما علمت من أفانين العلم، تبيـنت مـا بـين العلـم والملـك من الفضل، فرغبت بعلمي عن ملك الدنـيا، فقالـت لـه: لهـذا أمـرتك بما أمرتك به، ورأيت أنك إذا بلغت الغاية في العلم لم تعد إليّ، وصرفته ولم تزل مكرمة له.

* * *

تم الزواج

كانت (صدوف) امرأة حسنة الكلام وتسجع في المنطق واسعة الثراء ذات مال كثير أتاها قوم كثيرون يخطبونها فردهم وكانت تتعمد خطابها في المسألة، وتقول: لا أتزوج إلا من يعلم ما أسأله عنه ويجيبني على حد لا يعدوه.

فلما انتهى إليها رجل يدعى "حمران بن الأقرع" قام قائمًا لا يجلس وكان لا يأتيها خاطب إلا جلس قبل إذنها له.

قالت: ما يمنعك من الجلوس؟

قال: حتى يؤذن لي.

قالت: وهل عليك أمير.

قال: رب المنزل أحق بفنائه ورب الماء أحق بسقائه وكل ماله ما في وعائه.

قالت: اجلس (فجلس)

قالت له: ما أردت.

قال: حاجة ولم آتك لحاجة.

قالت: تسرها أم تعلنها؟

قال: تسر وتعلن.

قالت: فما حاجتك؟

قال: قضاؤها هين وأمرها بيّن وأنت بها أخبر وبنجمها أبصر !

قالت: فاخبرني بها.

قال: قد عرضت وإن شئت بينت.

قالت: من أنت؟

قال: أنا بشر ، ولدت صغيرًا ونشأت كبيراً ورأيت كثيرًا.

قالت: ما اسمك؟

قال: من شاء أحدث اسماً وقال ظلمًا ولم يكن الاسم عليه حتمًا.

قالت: فمن أبوك؟

قال: والدي الذي ولدني ووالده جدي.

قالت: ما مالك؟

قال: بعضه ورثته وأكثره اكتسبته.

قالت: فأين تنزل؟

قال: على بساط واسع في بلد شاسع قريبه بعيد وبعيده قريب!

قالت:فهل لك امرأة؟

قال: لو كانت لي لم أطلب غيرها ولم أضيّع خيرها.

قالت: كأنك لك حاجة في؟

قال: لو لم تكن لي حاجة لم أنخ ببابك ولم أتعرض لجوابك وأتعلق بأسبابك.

قالت: إنك لحمران بن الأقرع الجعدي؟

قال: إن ذلك ليقال!

فزوجت نفسها له وفوضت أمرها إليه!

* * *

قبيحٌ وأريب

في الكـتب أن رجـلاً يدعى أبا العيناء خطب امرأة فاستقبحته ولم تعجبها صورته فكتب لها:

فـإن تنفـري مـن قـبح وجهي فإنني   أريـــب أديـــب لا غـــبي ولا فـــدم

فردت عليه تقول: ليس لديوان الرسائل أريدك!

* * *

نفسية المرأة

تقــول كاتــبة فرنــسية: أعطــاني الأول عقداً من اللؤلؤ يعدل مدينة بأســرها بمعابــدها وعبيدها وقصورها، والثاني نظم من أجلي ديوانًا من الــشعر، قــال فيه: أن شَعري أشد سوادًا من الليل وأن عيني أصفى من الــسماء، والــثالث كانت تحمر وجنتا أمه حياء عندما تقبله لفرط جماله فكــان هــذا الجمــيل يجــثو أمامــي واضعًا يده على ساقي وشفتيه على قدمي.

أمــا أنــت يا مَن أحبه، فلم تعطني شيئًا، ولم تقل لي شيئًا، ولست جميلاً، ولكنك أنت وحدك الذي أحبه!

غريب هو أمر المرأة لا يرجح ما قيل عنها سابقًا إلا المثل الأسباني: المرأة كظلك، اتبعها تهرب، واهرب منها تتبعك.

قــال بعضهم: الرجل يكتم بغض المرأة أربعين يوماً، ولا يمكنه أن يكــتم حــبها يــوماً واحــدًا، والمرأة تكتم حب الرجل أربعين يوماً، ولا يمكنها أن تكتم بغضه يومًا واحداً.

* * *

حق وحق

قال أحد الصالحين:

حق الزوج على زوجته تسعة أشياء:

ألا تخرج من بيته إلا بإذنه

ألا تمنع نفسها منه إذا كانت طاهرة

ألا تخونه في ماله

أن تشاركه في الدعاء

أن تكرم أقرباءه

ألا تؤذيه بلسانها

أن تعينه فيما أمكن

ألا تمن عليه بمالها

ألا تمنع ما لها منه

وحق المرأة على الرجل:

أن ينفق عليها

ألا يغيب عنها أكثر من أربعة أشهر

ألا يضر بها إلا في شأن المضاجع

ألا يجامعها في دبرها

ألا يظلمها في صداقها

ألا يمنعها من زيارة أبويها

أن يوسع عليها النفقة

أن يعلمها أمر دينها من صلاة وصيام وأحكام حيض.

* * *

حديقة الحب

- من يحب الشجر يحب الغصون.
- ما فائدة المنظر الجميل إذا لم يكن بجانبك احد تقول له ما أجمل هذا المنظر؟
- المـرأة في الحـب تغتفـر حـتى الجريمة أما في البغض فلا تغتفر حتى الفضيلة.
- خيانة المرأة التي أحبها لا يساويها إلا وفاء المرأة التي تحبني.
- تستطيع أن تسعد المرأة بكلمة... وتشقيها بكلمة أيضاً.
- تحتقر المرأة الرجل الذي يحبها ما لم تحبه هي أيضاً.
- لا ينزع الحب من قلب الإنسان إلا حب آخر.
- صوت الحب قد يكون أقوى من صوت الضمير.
- يجـب علـى الـرجل أن يعـرف أن النـساء خلقـن لنحـبهن لا لنفهمهن
- المرأة تخفي الحب أفضل من الرجل.
- مـتى أحـبت المرأة حباً صادقاً.. تهذبت وسمتْ.. واستحال عليها أن تتـصور نفـسها ملكـاً لغـير الـرجل الـذي تحـب.. فـلا المال ولا العواطـف ولا أروع مفـاتن الترف يمكن أن تؤثر فيها وتدفعها إلى خيانة حبيبها.. "إبراهيم المصري".
- الزواج يحتاج لشخصين كي ينجح ويحتاج شخصا واحدًا لإفشاله.

- قد يحب الطائر السمكة لكن أين سيعيشان؟!
- ليس ثمة في العالم مثل حب المرأة المتزوجة وهذا أمر يمكن لأي زوج أن يشعر به أو يقدره "أوسكار وايلد".
- إذا لم تستطع أن تظفر بحب امرأة ما، فاملأها إعجابًا بنفسها وحبا بذاتها حتى تفيض الكأس فما زاد على حافة الكأس فهو لك "كولتون".
- إننا لا نحب المرأة لما تقوله ولكننا نحب ما تقوله لأننا نحبها "أندريه موروا".
- عندما تنزل على شروط المرأة تفشل في الحب وعندما تنزل المرأة على شروطك تنجح في حبك "أحمد بهاء الدين".
- المرأة لا تهزأ من الحب ولا تسخر من الوفاء إلا بعد أن يخيب الرجل آمالها "جوستاف لانتييه".
- يستطيع الرجل أن يجمع بين ثلاث نساء: امرأة يحبها وامرأة يعبث بها وامرأة يشكو اليها، لكن المرأة لا تؤمن إلا برجل واحد: تحبه وتعبث معه وتشكو اليه "بلزاك".
- يبلغ الحب القمة متى ما تنازل الرجل عن كبريائه والمرأة عن عنادها "الشاب الظريف".
- المرأة التي تفقد حبيبها امرأة أحبت والمرأة التي تحتفظ بحبيبها امرأة أتقنت فن الحب.
- إذا كنت تريد أن تنجح في الحب فأغلق قلبك في وجه امرأة تحبها "شوبنهور".
- الحب أكثر من العاطفة والمرأة أكثر من الجنس.

- الحـب كالفراشـة، كلمـا طاردها راغت منك، لكنك عندما تدعها تطير ستأتي إليك راغمة بهدوء "الشاب الظريف".
- خلقت المرأة لتحب الرجل وتخضع له "فولتير".
- المـرأة الـساقطة لا تـستحق ذرة حـب مـن رجـل شريف "الشاب الظريف".
- أحـب الـرجال لا لكـونهم رجـالاً بـل لأنهـم ليـسوا نـساء "الملكة كرستينا".
- الـشجاعة في الحـب أن تفوز بقلب من تحب وتستطيع الهروب ممن تحب.
- المـرأة تحيا لتـسعد بالحب والرجل يحب ليسعد بالحياة "جان جاك روسو".
- الـرجل كالـثعلب إذا أحـب فهـو حـذر مراوغ والمرأة إذا أحبت ضحت وأخلصت وتفانت.
- قلوب النساء تهتز كأوراق الشجر إذا مر بها ريح الحب.
- الحب حلم والزواج حقيقة والسعادة أن تجمع بينهما.
- جمال المرأة لا يساوي شيئًا إذا لم يتفتح قلبها للحب.
- إن أخطـر مغامـرة تقوم بها المرأة بعد الأربعين هي أن تقع في شرك الحب "مدام برج".
- لو سألت المرأة عن الحب قد يكون الجواب: الرجل.
- لا تقطـب جبينك دائمًا فإنك لا تعرف من سيقع في حبك بسبب ابتسامتك "الشاب الظريف".

- الحب غير الناضج يقول: "أنا أحبك لأني محتاج إليك" والحب الناضج يقول: "أنا أحتاجك لأني احبك" إرك فروم.
- عندما كنت صغيرا لم أحتمل الصبر وجربت الحب يافعًا، لكني بعد أن رأيت منه ما رأيت، عرفت أن جروح الركب في الصغر أيسر بكثير من جروح القلوب. "الشاب الظريف".
- أنت لا تحب امرأة لأنها جميلة، إنها جميلة لأنك تحبها.
- دائما أسأل نفسي هل يستحق الحب أن نقاتل من أجله؟ لكنني عندما أتذكر وجهك الجميل فأنا جاهز جدًا للحرب! "الشاب الظريف".
- الحب هو ألا تشعر برغبة في الذهاب إلى النوم لأن الواقع أفضل بكثير من الحلم "الشاب الظريف".
- مؤلم أن تكتشف أن مَن تهوى يحب شخصا آخر، أليس كذلك؟ "الشاب الظريف".
- من لا يحب الحب يقول عنه: مسؤولية، من يلعب بالحب يقول عنه: لعبة، من لا يملك الحب يقول عنه: حلم، من يفهم الحب يقول عنه: قدر، وأنا أقول: أنت هو الحب!
- كم تمنيت أن أجد رقم من أحب في خانة "مكالمات لم يرد عليها"!
- حب تركض خلفه حب جميل، لكن حب يركض خلفك حب أجمل.

* * *

المراجع العربية

- موليير "دون جوان" دار البحار، لبنان.
- السبيعي البيطار "قراءة في كتاب الحب والطب والمعجزات" دار الفكر، سورية.
- سيد صادق عبدالفتاح "غرائب النساء" المركز العربي للثقافة والتعليم، لبنان.
- قربان سعيد "علي ونينو" ترجمة: أميمة البهلول. دار الكلمة، سورية.
- د. صادق العظم "في الحب والحب العذري" دار المدى، سورية.
- زكي مبارك "مدامع العشاق"، دار الجيل، مصر.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار الكتاب العربي، لبنان.
- ديوان الشاب الظريف، دار الكتاب العربي، لبنان.
- ديوان مجنون ليلى، دار الكتاب العربي، لبنان.
- ديوان العباس بن الأحنف، دار الكتاب العربي، لبنان.
- ديوان أبي نواس، دار الكتاب العربي، لبنان.
- ديوان البحتري، دار الكتاب العربي، لبنان.
- ديوان ابن الفارض، اعتنى به وشرحه هيثم هلال، دار المعرفة، لبنان.
- ديوان قيس بن ذريح (قيس لبنى)، اعتنى به وشرحه عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، لبنان.

- ابن حزم الأندلسي "طوق الحمامة في الألفة والألّاف"، دار الكتب العلمية، لبنان.
- د. حسين هاشمي "يوميات طبيب نفساني"، ترجمة: زهراء يكانه، دار الهادي، لبنان.
- ناصر أبو الحمد "أسرار الحب والزواج والجنس"، مكتبة النافذة، مصر.
- أسامة الحافظ "فن الحب"، منشورات دار علاء الدين، سورية.
- مارغريت ماكنهوبت. تعريب د. سامر عرار "سيغموند فرويد"، مكتبة العبيكان، السعودية.
- عبداللطيف نصار "وجع البنات"، هلا للنشر والتوزيع، مصر.
- عايض القحطاني "سلوة العاشق"، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت.
- د. عادل صادق "حب بلا زواج وزواج بلا حب"، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، مصر.
- سلسلة مسابقة "شهر العسل" جريدة الوطن الكويتية، الكويت.
- الموسوعة الشعرية 2003 إصدار المجمع الثقافي، الإمارات.
- جريدة الرياض "اعترافات بنات ما بعد الخمسين" تحقيق: مجدي رجب، السعودية.
- "الحب عند العرب" دراسة أدبية تاريخية، إعداد: المكتب العالمي للبحوث، دار مكتبة الحياة، لبنان.

المراجع الأجنبية

- Deepak Chopra "**The Path To Love**" Three Rivers Press **USA.**
- Dr. James Dobson "**Love Must Be Tough**" Multnomah Books **USA.**
- Lowndes, Leil "**How To Make Anyone Fall in Love With You**" CB Books **USA.**
- Susan Rabin "**How To Attract Anyone, Anytime, Anyplace**" A PLUME Books **USA.**
- Thomas Merton "**Love and Need**" University of Southern California Library **USA.**
- Anthony Walsh "**The Science of Love**" Prometheus Books **USA.**
- Casanova "**History of My Life**" (Histoire de ma vie)**.**



تمّ بحمد الله وتوفيقه

عايض حمد عبدالله القحطاني

ص. ب. 13299 كيفان 71959 الكويت

E - mail: author_ayedh@gawab.com
ayedh.usc@gmail.com